سلوى بكر

04



البشمورى 2

رواية



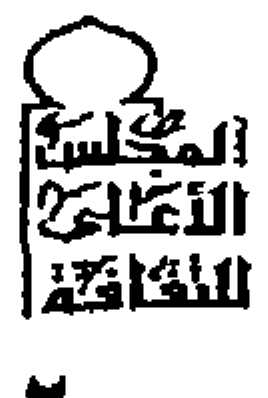
المجلس الأعلى للثقافة

سلسلة إبداعات التفرغ

سلوى بكر

البشمورى 2

رواية روايات



٢٠٠٠

لم أكن قد ركـبت البحـر من قبل ، ولم يكن لى خـبر بحـضرته ، فشعرت لما مثلت أمامه، ونظرت هيأته ، كأن قلبى قد انشق وانشطر ، وأن دمى قد غاب وانقشع ، وأنا على ما أنا عليه من يأس وانفطار وتسلسل فى العجز والمرار ، بسبب كل ما قد كان ، وحتم البُعد عن الأوطان ، وهكذا سرت لا أدرى كـيف أرفع القدم وأحطها وأنا أصـعد إلى العمارة البـحرية الكبيرة التى سمعت الجُند يطلقـون عليها الحراقة ، وهى من جاريات الماء، ذات مرام للنيران ، يُرمى منها العدو فى البحر، وهيأتها هيأة عقاب ضخم مخيف ، مما زاد فى وجل القلب ، وفعل فعل الزهومة فى النفس.

أخذوا يفرزوننا ، نحن الأسرى ، وكان عددنا كـثيراً جماً، فمن قال إنا كنا ثلاثة آلاف نفس ، ومن قال دون ذلك ، أما النساء والأطفال ، فقد تحوطوا عليهم فى موضع قصّى بمؤخرة العقـاب ، بينما جرى تقسيم الفتية والرجال حسب هواهم وغرضهم منه ، وكان قدرى أن أوضع ضمن شغيلة الوقايد فى بطن الحراقة.

ولم تك الحراقة التى أودعـونى بها هى الوحيدة المغادرة من مـياه البر المصرى ، بل كـانت هناك حراقات أخـرى وُزِّع عليها المأسورون ، إضـافة إلى ثلاثة سلالير، كـما أخبرنى بنيامين الصورى - بعـد ذلك - وهو خير من تعـرفت عليه أثناء عـملى بالوقـايد ، والسلاليـر من المراكب البحـرية الأصغـر فى هيأتها من هيأة الحـراقة ، ذات شُرع ثلاث، قـال بنيامين وهو خبيـر عليم بهذا المضمار لكثرة عـمله واشتغاله بالبحـر ، إن الواحدة منها

تحوى أربعين مجدافاً ، وهى سريعة الحـركة ، وقد سميت على مُسمى نوع من الطيـر يحلق سريعـاً فى السماء ، وأن سـلورة من هذه السلاليـر وقد حمّلت بكل ما جلبـه الخليفة من أرض مصر ، سواء أكان قـد حصل عليه عن طريق الأعطية أم الهدايا ، أو كان أخذ عُنوة رغـماً عن أهلها ، مثلما كان أمره مع كل المتحصل من ورق البـردى الذى صنعه أهل البشمور، وما كانوا يتخذونه تجارة ومعاشاً لهم.

أما حـراقتنا، فكانوا قـبل صعودنا ، قـد وسقوها بـكل ما يحتـاجه الملاحون من الميرة والزاد ، علـى نحو الخبز والماء ، ومن جمـيع الفواكه ، والأدم ، والسـفرجل ، والـبطيخ ، والشاه بلـوط ، والحمّص المجـوهر ، والباقلايا مطـبوخاً ، والبصل ، والثوم ، وجبن الحلّوم ، والـشبّ اليمانى الأبيض الذى يحمل إلى الآفاق ، وغير ذلك مما يطول ذكره والذى أخبرنى به أيضا بـنيامين الصورى ، وهو الـذى أعلمنى - بعد ذلك - أن مـخازن الغـلال التى تسمى الأهـراء المباركـة تخرج منهـا جـرايات رجال السـفن والأسطول ، وكذا جرايات السودان العاملين بها.

كـان بخنس قد أُخـذَ ضمن خـدام السـوارى والبنود على السطح ، فافتقدته وابتـأست لفرقته كثيراً ، ويبدو أنهم توسّمـوا فيه الشدّة والبأس ، بسبب عظم جـثته وقوة عـضلاته ، وقد توجّع قلبى لفـرقته رغم معـرفتنا القصـيرة ببعضنا البـعض ، وتنادمُنا القصـير السـريع ، لكن الربّ شاء أن تكون أرواحنا أسـبق من الزمان فـى حركـة التلاقى وحـدوث التصـافى ، فالمحب تظل بلورة روحـه دائرة ، دون توقف ، حتى تصادف بلورة مـحبّة دائرة بحثـا عن الاقتـران والمودة ، فإذا ما تصـادمتا وتمـاستا ، مع سـرعة الدوران وشدّتها ، تولّد شعاع المحبة متدفقا عظيما ، لا يدانيه شعاع الزمان قوة وبأسا ، رغم هيولة حدوثه.

وربما كان ما حكاه بخنس لى عن سويلا سبباً فى توثق محبتى له ، فقد أخبرنى أنها كانت قد فقدت ذويها أجمعين فى آخر طاعون شهدته أراضى البشامرة قبل الحرب الأخيرة ، وكان ذلك قبل عدة أعوام خلت ، وكان فناءً عظيماً لكثير من الناس والدواب ، وسويلا كانت حينذاك صبيّة لا تتجاوز أعوامها العشرة ، فهامت على وجهها فى الوحلات ، حتى حَنّ عليها رجل طيب فحشرها ضمن عياله ورعاها ، لكن علّة شيطانية باتت تعتريها بين الحين والحين ، تجعلها تذهل عن الدنيا ، فتصرخ ساقطة على الأرض ويتخشّب جسدها تخشّب الأجساد الميتة - إلى حين - فتظل على ذلك الحال ، وقد زاغ بصرها وترغرغ ريقها خارجاً من فمها ، حتى ينظر الرب فى أمرها ويرحمها ، فتفيق وتثوب إلى رشدها مرّة أخرى ، وأن الرجل ، مربيها ، وكان من الميسورين المشتغلين بصناعة قراطيس الكتابة من ورق البردى المنتشر بالأراضى البشمورية ، لم يبخل عليها ، بل اهتم لعلتها ، وطاف بها على كنائس الملكانيين حيناً ، وعلى كهان الوثنية حيناً آخر ، دون أن يتوصل لمخرج من مأزقها. وذلك بعد أن أعيته الحيل ، وباركها العديد من آباء كنيستنا المباركة الذين مسحوها مراراً بالزيت المقدس وقرأوا عليها قرايات إيمانية دون جدوى.

صرت فى الأسفل ، أعمل عند بيت النار مع الوقادين ، وكان دورى أن أظل حريصاً منتبهاً إلى اشتعال جمراتها طيلة الوقت دون ملل أو كلل ، بينما تدور آلاتها ويدفعها المجدفون وهم عصبة من الرجال الأشداء المقدامين لم أر أخشن منهم طيلة حياتى ، وجلهم من العبيد السودان شديدى السواد ، حتى أن جلودهم ، وقد تعرقت ، كانت تلتمع كالأبنوس المصقول ، وليس عليها إلا ما يستر عوراتهم ، ومواضع العفّة فيهم ، وقد وقف عند رؤوسهم عسكر الخليفة يلهبون ظهورهم بالسياط ، إذا ما تباطأوا فى عملهم أو زيّنت لهم نفوسهم التوانى والكسل. أما من

كانـوا معى فى عـمل الوقايد فـقد كـان جلّهم أجلافـاً وأدنى مـن ذلك ، وكانوا يتكلمون معى بلسان عربى خولط بلكنة ثقيلة لا تخلو من سذاجة ، أما فيما بينهم فكانوا يتحدثون بلسان غريب لم أسمع مثله من قبل ، فلمـا سألت بنيامين الصورى ، وهو الدارى بأحوال الملاحة من المبتدأ إلى الخبر ، بسبب أن أهله من المشتغلين بالبحر أباً عن جد، قال لى إن هؤلاء معظمهم من طائفة عبيد يقال لها «المنبوذون» ، يجرى جلبهم من بلاد الهند والسند، ويباعـون فى أسواق النخاسـة بأبخس الأثمان ، بسبب جـهلهم وفظاظتهم وخيبتهم فى تعلم الحِرَف والمِهن ، وأنهم كانوا فى موطنهم بالأصل لا يقبل عليهم الناس ولا يحادثهم كائـن من كان ، فيعيشون محـتقرين منبوذين ، ملعونين، حتى أن أشراف بلادهم كانوا يعاقبونهم بصب الرصاص المصهور فى آذانهم إذا مـا تجرأ أحـدهم ورفع صوته بالكلام فى حـضرة واحـد من هؤلاء الأشراف الهندوس.

كان بنيامين الصورى لطيف المعـشر ، ظريف الهيأة ، وهو فتى باسم بشبوش ، بادر بالعطف علىّ والتودد إلىّ ، وكان يـحدثنى بقليل من قبطية حينـاً ، وبالعربيـة حيناً ، وكان قـادراً على التفـاهم مع المنبوذيـن أيضاً ، ويقول لهم شيئاً بلسانهم ، وكـانت مهنته رئاسة الوقايد ، والإشراف على الداخل منها إلى بيت النار - فى مـوضعنا أسفل الحراقة - وضـبطه بمعيار الخبرة ، حتى تـظل جذوته متقدة دون انطفاء ، فلمـا لاحظت نباهة لسانه ورطانته بكل كلام مهمـا تباينت الأجناس ، ضحك وقال إن هذا دأب كل من اشتغل بالبحـر، فكثرة الطواف والذهاب والإياب تلقى به على شطوط البشر، فيستقر على لغاتهم وعاداتهم ومشاربهم ومآربهم فى الحياة.

ظللنا نعمل طيـلة اليوم، وكان هدفنا بعـد الخروج من أشتوم بحـيرة تنيس هو شطّ مدينة الفرما ، لكن بسبب معـاكسة الريح لنا، ولهوها بسير الماء عند أشـتوم البـحيـرة ، تعطّل خروجـنا بعض الوقت إلى فناء البحـر

الرومى ، فما لبثنا إلا وكـان الليل قد سحبنا إلى غزير عتمـته ، فجاء إلينا بعض الحراس ، وأمـر بعضنا بالذهاب معـهم ، فلما امتثلنا وسرنا وراءهم ووصلنا إلى مـوضع آخر بجوف الحـراقة ، حَـمّلونا إناءً كبيـراً مملوءاً بملح النطرون ، وضعناه بحيث لا تطوله ريح، ثم أتوا بسلٍّ من الحديد على هيأة الصليب غرسوه فى حلقة من خشب السنط وألقوا بهما فى الإناء ، فطفت على سطح الماء ، وبعـد ذلك جاء الربابنة ، فـأظهروا حـجراً عـجيـباً فى حجم قبضة اليد أو أقل وأخذوا يقربونه من سطح الماء فى حركة دائرية من اليمين إلى اليسار ، حـتى ظهرت آيته ، وهى دوران السلّ على السطح فى اتجاه موضع دوران الحـجر ، وكانوا يسحبون يدهم بسـرعة ، فيكف السلّ عن الحركة ، ويستقر طرفٌ منه نحو الجنوب والآخر نحو الشمال ، وهكذا حددوا الوجهة التى يتوجب أن تجرى إليها الجارية فى المـاء.

وصلنا مدينة الفرما فجر الليلة التالية ، وعندما استبانت بعض معالمها فى الأفق ، سارع المنوطون بخدمة الأشرعة بلمّـها لترسية الحراقة عند برّها ، وقد توسّلوا لذلـك بالثقالات الحـديد الغلاظ ، وقد راح النـوتيّة يفكون حبالها ويدفـعون بها إلى جوف البحر ، فمـا أن وصلنا ، الوصول الأخير وتوقفت الحراقة والسـلالير ، حتى هرع إلينا الحمالون أتبـاع جيش الخليفة وأصحاب الركائب والذين كانوا ولابد قـد طُيّر لهم الحمام ووصلهم البرق ونحن فى سبـيلنا للحلول فـى هذى البقعـة ، وإلا ما كانوا قـد بلغونا فى هذا الموضع عند هذا الحد الأدنى من النـهار ، ثم أنهم بدأوا فى نقل بعض من حمولة السـلالير على ظهور الجمال ، وقـد أمرونا، نحن المأسورون ، بالحمل جميعاً ، ولـم يعف من ذلك غير النساء والأطفال ، فنالتنا من ذلك مشقة عظيمة بسبب الحـمل والجهد العظيـــم الذى كنا قد عانينـاه طـوال ما مضى من نهار وليل.

أزاح الفجر ستائره فجأة عن شمس فتية لا مثيل لها ، وقد تألقت فى هذا الفضاء الأزرق المديد المجتمع من سـماء وماء، فانشرح صدرى ورحت أصلّى خلسـة ، شاكراً الرب على كل شـىء ، حامداً نعـمته لحـلول نهار جديد ، ومـا لبثت إلا قليلا حـتى رأيت بخنس بن أيوب قادمـاً نحوى ، وقد حـمّلوه بما حُمّلـنا بمثله، فمـا أن رآنى حتى سـارع بحطّ حمـولته ، واندفع إلىّ معانقاً ، وقد أخـذه شوق لا يدانيه إلا شوقى له ، وكان وقت الزوّادة قد حل ، فجلسنا على الرمال نأكل ما قدموه لنا من خـبز وبصل وتمر جاف ، وقد أخبرنى بخنس أن كثيرين من الناس قد مرضوا وخصوصاً من النسـاء والأطفـــال ، بل إن بعـضـهم أوشك على الـتلف ، وأن المداوين والمطبّبين على سطح السـفن ، باتوا موزعى الجهـد لكثرة المرضى ، وأنهم يكتفون بماء الراوند ، وشموم النوشادر ، لإفاقة من غشى من الناس بسبب

انتفاء عهده بركوب البحر ، وأنهم كادوا أن يفتكوا بواحد من الأسرى أشار عليـهم بجرعات من الخـمر يشـربها الملتـاعون فـتهدّئ مـن روعهم، لأن المسلمين يحرّمون شرب الخمر مهما كان الأمر حتى لدفع مرض، أو لمداواة داء من الداءات.

وكنت عندما اعتنقت بخنس قـد راعنى تصاعد ريح الخل منه، فأنفت من ذلك ، وعـجبت له، ولم أسـتطع كتمـان الأمر فى صـدرى ، فلمـا سـألته ، قـال إنهم أمروه ، مـثلما أمـروا كل من على السطح من خـدام الصوارى ، بشـرب ماء البحر ثم تقـيوئه ، وبعد ذلك طلوا وجوه الجـميع بالخـل ، وكل ذلك بغرض دفع دوار البحـر وآثاره المدّوخة والضارة للنفس والبـدن.

رحنا نتسـامر ، بينما معـالـم الفرما ترتسم وتتـوضح لنا، كلما تجلّت الشمس أكثر وشددت نورها ، فلما نـظرتها وجدت أنها مدينة ذات حصن مطلّ على البحر ، وبدا لى أن بها أخلاطاً من الناس ، كما وضح من حال الحمـالين وأصحـاب الركائب، الذين هم مـن البدو والعرب والأقـباط ، فأعلمنى بخنس أنه كان قد قـرأ فى بعض الكتب ، أنه كان منها طريق إلى جزيرة قبـرس فى البر ، فغلب عليهـا البحر ، ويقـال إن فيـما غلب عليه البحـر مقطع للرخام الأبلق ، وأخـبرنى أيضاً أن مما قرأه عنهـا أن أحدهم شرع فى هدم أبواب من حجـارة كانت شرقى الحصن ليعمل منـها جيراً ، فلما قلع منها حجراً أو حجرين ، خرج أهل الفرما بالسلاح ، فمنعوه من قلعهـا وقالوا: هذه الأبواب التى قال الرب فـيها قـولاً مقدسـاً على لسان يعقوب فلا يجوز هدمها .

مـا حيـيت لن أنسى صـورة بخنس وهو يحدثـنى عن الفرمـا ونحن جالسان على الرمـال ، والأزرق المديد أمامنا بلا حدّ يفوقه غيـر حدّ الحزن فى عينىّ بخنس شديدتى السـواد ، بينما تعبير شـامل من الأسى قد هيمن

على وجهــه ذى الجبين العـريض والأنف الأشم المرتسم تحتــه شارب داكن ولحيـة خشنة خشونة شـعر رأسه ، فبـعـد ذلك الـــوقت لـم أر بخنس ، ولم تتكرم الأيام عليّ بلقياه مرة أخرى أبداً ، ولقد سألت عنه مراراً ، بعد ذلك ، كل أولئك الذين يمكن أن يكـونـوا قد صـادفـوه ، ولكن دون جـدوى ، وقد تضاربت رواياتهم حول موضعه ومـصيره ، فمن قال لى مرة إنه سقط أثناء مسيـرنا فى البحر من فوق أحد الصوارى فـابتلعه الماء فى التو ، ومن قال لى إنه شاهده وهو يساق فى جملة الأسـرى الذين سيقوا إلى دمشق ؛ وهكذا ظل اختـفاء بخنس وعـدم وقوفى على مصـيره لغـزاً يعذب روحى حتى يومى هذا.

كنت فى البداية أظن أنهم سـوف يسوقوننا مبـاشرة إلى مقـر الخلافة ببـغداد ، لكـن بخنس أخبـرنى قـبيل فـراقنا، ونحن فى الـفرمـا ، أنهم سيذهبون بنا إلى أنطـاكية ، وأن الذين رفعوا السلاح على الخليفـة سيؤخذ جلّهم إلى دمشق ، وقال إنه سمع بعضهم يقول إن الخليفة أمر بهدم ودرس كل الكور البشـمورية المنتفضـة ونواحيهـا ، وحمل كل من تبقّى فيـها من الناس على السفن ، وأنه كان قـد جاء إلى مصر لتهـدئة فتنة العرب الذين استقـروا فى الغرب نواحى الإسكندريـة ولوبيـة ، وهو يخشى أن يتكـرر ما جـرى بعد عـودته إلى بغداد ، فتـثور الفتن من جـديد ويتّحـد العرب المنتفضون مـع الأقباط مرة أخرى ، وأنه خيّر رؤسـاء الكور المستسلمين فى الرحيل إلى واحـدة من بقاع عدة بأرض الخلافـة، فاختاروا مدينة أنـطاكية العظمى ، التى فيها أعظم كنيسة فى سـائر أرض الخلافة ، وكان اختيارهم أنطاكية بسبب تقـارب الكنيسة اليعقوبية مع كنيسـة أنطاكية هذه ، وضعف الخلف بينها وبين الكنيسة القبطية فى مبادئ العقيدة .

وقبل صعودنا إلى المراكب مرة أخرى قاموا بتعليق جلود ولبود مبلولة بالخل والماء والشب والنطرون حـول المراكب من الخارج ، وذلك لدفع أذى

النفط ، إن وجد من تسّول له نفسه الاعتداء على السفن ، من لصوص البحرأو عساكر الروم البحرية ، الذين كانوا ما يفتأون يجوبون ذلك البحر ، خصوصاً أثناء الليل ، وقد احتاطوا لذلك أيضا بالطين المخلوط بالورق والنطرون والخطمى المعجون بالخل ، فكل ذلك يقاوم فعل حرايق النفط هذه ، وقد راقبوا الأمتعة والمنقولات ومنعوا نقل بعضها ، وكان من الممنوعات ، عدة ديكة ، أراد رجل مرتحل معنا من الفرما أن يأخذها فى أقفاصها معه بسبب أنها مما يستخدم فى الصراعات المحببة إلى الناس هناك ، وهى تجلب لصاحبها من اصطراعها فى الأسواق المال الجيد ، غير أن العساكر أصروا على إجباره على تركها ، إذا كان يريد السفر ، حتى لا تصيح أثناء الطريق فتكشف موضع السفن للمغيرين ، إذا ما أغاروا أثناء الليل ، فآثر الرجل عدم السفر والبقاء مع طيوره التى قال إنها لا تقدر بمال وإنها عزيزة عليه للغاية.

اتجهوا بنا بعد ذلك إلى مدينة العريش ، لملاقاة بعض تجار الكارم الوافدين إليها من بلاد الصين والهند ، فحملوا بعضهم معنا ، كما سمعت من بنيامين الصورى ، الذى قال أيضا إنهم صعدوا محملين بنفائس من الحرير ، والعطور ، والتوابل ، والورق السمرقندى المشهور وثمائن أخرى مجلوبة من بلاد الشرق البعيد ، سيذهبون بها إلى أنطاكية ، ومنها إلى القسطنطينية وبلاد البنادقة . ومن العريش راحت السفن تنهب البحر ليل نهار.

لم أغف خلال ذلك إلا سويعات قليلة ، عندما كان الريس يسمح لى بوجبة نوم قصيرة يحل غيرى خلالها محلى فى عملى ، وهكذا وجدتنى بين عشية وضحاها أركب البحر عابراً المدن والبلاد ، وهو ما لم أتصوره أبداً ولا حلمت به يوماً، فصرت كمن يعيش وهماً لا حقيقة ، حتى إننى عندما كنت أخلد إلى النوم ، كانت تأتينى المنامات والأحلام الغريبة التى

تخلط زمـاناً كان بزمـان آت ، على نحو أتيـقن معـه مدى ضـياع روحى ووقوعها فى جبّ اليأس والحيرة.

قبل وصولنا إلى أنطاكية بقليل، غرقت ذات مرة بالنوم ، قبيل الفجر بعـد انتهـاء نوبتى فى العـمل ، فرأيت فى لطـيم موج الحلم ثاونا وآمـونة وسويلا وشابة أخرى بيضاء فارعة الجـسد، ينسدل شعرها ستارة من السواد على ظهرها ، وقـد وقفـوا جميـعاً على شاطئ بحـر صـاخب المـوج ، مضطرم ، وهم يلوحون لى أن تعال إلينا ، فرحت أسـبح مجتهداً فى الماء العاصف محاولاً الوصول إليـهم ، لكننى كلما كنت أحاول الاقتراب منهم كانت تخذلنى قواى ويأخذنى الموج بعيدا عنهم ، فأعيد الكرة من جديد ، دون جدوى ، حتى يئست وتعبت ، فرحت أبكى وأنتحب بمرارة ، وبينما أنا على هذى الحال من اليأس والقنوط ، إذ انبثق الماء عن لجة نورانية مبهرة ، وإذا بالفتاة التى كنت قـد رأيتها معهم تطلع من داخلهـا ، أثيرية نورانيّة ، هيولية التجسد وكأنها مـلاك من ساروفيم السماء ، ثم إنها راحت تدفعنى دفعـاً فى الماء بكل لطف ، حتى صيـرتنى على الشط ، وكل ذلك دون أن تمس بدنى أو أشعر بلمس أناملها لجلدى.

كـان شوقى لرؤيـة سـويلا يزداد كلمـا توغلنا فى السـير قـاصـدين أنطاكيـة ، فللبحر وشيـش وخفخفـة وزمزمة وهدير وصخب وزمـجرة ، تؤرق الشجون وتعصف بالقلوب ، فكنت أتمنى على الله أن أراها ولو مرة واحدة ثم يكون ما يكون ، وكانت دموعى تسيل حيناً ، رغما عنى، لفرط شوقى إليها ، بينما كان كل من حـولى يظنون أنها تسحّ حسرة على حالى ، أو أن مقلتى لا تحتملان شدة النار وسـخونتها ، وبينما كنت أعمل فى ليلة من الليالى ، وقـد أوشكت نوبتى على الانتهـاء ، إذ بمن يدخل علينا من الحراس فى موضـعنا بالوقايد ، وينادى طالباً أباً قبطـياً فى الحال ، ولما لم أكن سوى قـيم فقيـر إلى الله فى بيعة مـن البيع ذات يوم ، لم أردّ ، بل

واصلت عملى بكل انشغال ، لكن الرجل لكزنى بقدمه ، وقال: أيا أنت ، ألم تقل إنك كنت من أهل الكنيسة فى مصر العتيقة ، فما بالك لا ترد ؟ ولماذا تصاب بالخرس وتتجاهل الأمر، وكأن بك صمماً ، أو كأن الأمر لا يعنيك؟ قلت لروحى: حمداً لله ، لقد آمنوا وصدقوا الآن أننى من أصحاب المنجلية والعباءة ، ولست من أهل السيف والرماية ، فما كدت أفرح بذلك، وأقول مؤيداً قوله بأى نعم، حتى أمرنى بالوقوف وبالسير وراءه فى التو والحال ، فمضيت خلفه صاعداً إلى سطح الحراقة ، حتى بلغنا موضع النساء والأطفال ، فوجدت سويلا راقدة بينهم على الأرض ، وقد التف حولها بعض من النسوة والعجائز وهن يبكين وينتحبن ويندبن الندب القبطى المعروف ، أما هى فكانت مسبلة العينين ، تعانى سكرات الموت ، فلم أتمالك نفسى واندفعت تجاهها آخذاً رأسها بين يدى وأنا أهتف بلهفة: سويلا سويلا ، ورحت أكرر ندائى لها كمن أصابه مس من الشيطان ، فلم يعد يقوى على السكوت والجَلَد ، فما كان منها إلا أن فتحت عينيها قليلا ، وأومأت برأسها بصعوبة مشيرة إلى صدرها ، فلما نظرته على ضوء المشاعل المتراقص بفعل ريح البحر الغاضبة ، وجدت صليبى متدلياً من عنقها وقد استقر عليه ، فلم أتحكم بمشاعرى ، وشهقت شهقة ملتاعة سمعها الجميع ، ورحت أنتحب رغماً عنى ، لكنها عاودت الإشارة إليه بمعنى أن: خذه . فرحت أمسك براحتها ، وأمسح وجنتها ، ولسانى يتمتم بآيات الربّ: «لا تحبوا العالم ولا الأشياء التى فى العالم ، إن أحبّ أحد العالم فليست فيه محبة الآب . لأن كل ما فى العالم شهوة الجسد، وشهوة العيون ، وتعظم المعيشة ليس من الآب ، بل من العالم . والعالم يمضى وشهوته ، وأما الذى يصنع مشيئة الله فيثبت إلى الأبد» .

وظللت أتلو وأصلّى وأنا فى غاية الأسى ، وقد تذكرت وقت موت آمونة ، وكيف كانت راقدة ممددة أمامى كما سويلا الآن، فلما وصلت إلى قوله الجليل:

«ها نحن نطوب الصابرين. وقد سمعتم بصبر أيوب ورأيتم عاقبة الرب، لأن الرب كثير الرحمة ورؤوف» .

وبقيت أردد لحظات بصوت خفيض قوله : " هو ذا الديان واقف أمام الباب ، هو ذا الديان واقف أمام الباب" ، وجدت سويلا تنفرج شفتاها عن ابتسامة واهنة راضية ، ثم مالت برأسها ناحية الأفق البحرى حيث جئنا من بر مصر وهى تحدق مفتوحة العينين عن نظرة حزينة آسية ، فأدركت أن ملاك الموت قد حَل عليها وسوف يرتحل بها . وجمدت الدموع وتحجرت فى عينى ، وقد بدأت أثوب إلى رشدى ، وبراحتى أسبلت جفنيها ، ورحت أواصل قراياتى الربانية وأنا أريح رأسها على الأرض ، وسرعان ما طلب الحراس منى أن أنتهى سريعاً حتى أعود إلى عملى ، فخلعت الصليب من رقبتها وأطبقت يدى وأنا أقبله، ووقفت متوسلاً إليهم أن يشركونى فى مراسيم رحلتها الأبدية الأخيرة ، لأكون آخر من يودعها خلال هذه اللحظات. شعرت أن الحراس أيقنوا أننى من أهل الكنيسة ، لأن معاملتهم لى لانت قليلا ، ثم انهم لما بدأ الفجر يلوح فى الأفق ، أتوا بعدة جثث أخرى من مواضع متباينة بالحراقة ، فبلغت الجثث التى عددتها إحدى وعشرين جثة ، بينها أربع عشر جثة لصبية وأطفال رصوها إلى جوار بعضها البعض على الأرض ، ثم طلبوا منى أن أصلى عليهم صلاة

التجنيـز ، فأخذت أتلو ما تيسـر من الآيات وأدعية المغفـرة ، بينما رحت أصْلب عليهم واحداً واحداً وأنا راكع خشوعاً وتأدباً ، ويدى تمسحهم بالماء وليغـفر الرب لى ، عوضـاً عن غياب الميـرون المقدس ، طالبـاً لهؤلاء الأبرار جمـيعاً كل رحـمة ومغـفرة ، وبينمـا أنا مسـتغرق فى كـــل هذا بهمـة وإخـلاص ، إذ بصوت مـؤذن يتـعـالى حنوناً شجـيـا بالأذان ، ثم نادى بالصلاة على جماعة من موتى المسـلمين ، كانوا قد ودعوا الدنيا كذلك ، ووضعوا على جانب من الطرف الآخر للـحراقة ، فلما فرغت من صلواتى ، انتظرت حتى فرغ الناس من الصـلاة على المسلمين المتوفين أيضا ، ثم بُدئ إلقاء الموتـى فى الماء ، فعددت عـدد الرميـات المجتـمعة من كل الجـانبين فوجدتها قـد بلغت ثلاثاً وستين رمية ، يصدر عن كل منهـا صوت مهيب رهيب ، وكـأنه انطلاقـة واحدة من المنجنيـق ، وذلك وقت بلوغ الجسـد الإنسى الماء وارتطامـه به ، ولسـوف أظل حـتى حين حـينى ، ومـواراتى التراب ، لا أنسى ذلك الصوت الصارم المزمجر ، ولا مشهد الأفق البحرى المهيب وهو ينزع ستائر الظلمة عن شمس حزينة أخذت تصعد رويداً رويداً إلى الفضاء ، فبدا كل ذلك مما يحـفر فى الذاكرة ، وهو يدون بقلم الحزن الرهيب فى أعماق الحس والشعور.

كان الحـراس، وكل من حضر ذلك الوقت على سطح الحراقـة ، قد وقف واجمـاً خاشـعاً ، تطل من عينـيه نظرات الأسى وكأنه يتـــأمل قوة الموت ، ورخص الدنيا وتواضعها أمام جلاله وسره العجيب ، وقد تصادف أن عبرت نوارس الماء فوقنا ، ففاضت قيـعان نفسى بألم شفيف وتسارعت

دموعى تنهمر ، مرة أخرى ، وقد بدت لى صوصوات تلك النوارس ضرباً من النوح ذكرنى بترنيـمة قديمة كنت أسمع أمى ترددها كلما فـاض حزنها لأمر من الأمور وهى تقول:

صـيـرنى حـزنى عـلى أحـبـابى عـلـيـــــــلاً بـلا عـلـة
وكـــــاد الأسـى والـنـوح يـخـــــرجـنـى مـن المـلـة
ودهر يـروح يا عين وشــــوقى لخـلـى لا تـوصــف لـه خـلـة

وبقيت دمـوعى تسح حينـاً حتى بللت صليب سـويلا فرحت ألثـمه بشفتى حسرة وألماً .

بعد رحلة مضنية استغرقت ما يربو على العشرة أيام ، لاحت لنا أنطاكية عن بُعد . كانت الحراقات والسلالير تتوقف طوال رحلتنا ببعض الثغور الشامية التابعة للخلافة حينا ، حتى تتزود بالميرة والوقود ، وكان البحر قد عاكسنا وقتاً ، فزمجر وهاج ، حتى أن سلورة من السلالير كادت أن تنقلب ، لولا عناية الرب ورعايته لنا ، وكان فى حين آخر سلساً هادئاً ، فسارت السفن دون عُسر أو خوف ، اللهم إلا من دواب بحرية كانت تظهر بين الحين والحين ، كذلك الحوت الصغير الذى ظهر لنا مرة ، فسارع البحارة والنوتية بصيده ، وكانوا غاية فى السرور والبهجة، فهو عدا الفائدة المرجوة من لحمه ، الذى يؤكل جانب منه ، له فوائد أخرى وقد راحوا يطبخون أكثره فى قدور فيذوب جميع لحمها ويعود شحماً مُذاباً ، يستخدم فى قلفطة السفن وسد خروق أخشابها ، وقد أخبرنى بذلك بنيامين الصورى ، وأضاف أن أكثر ذلك إنما يعمل لسفن بحر القلزم لكثرة الشعاب المعترضة فى هذا البحر .

فلما بدأت السفن فى دخول البحر الأنطاكى ، وثبت أمان التسفير ، وأن لا خوف من غارات بحرية الروم ، أو لصوص البحر ، رُفعت البنود والرايات السود ، وهى علامة الخلافة إلى أعلى حدود الصوارى ، وانتابت الجميع ، رغم التعب والحزن والألم ، أحاسيس الفرح بالسلامة ، ونشط كل إنسان فيما بين يديه من مهام ليتمها على خير وجه ، قبل الرسو والنزول الأخير من السفينة .

عندما أنزلونا البر الأنطاكى ، قال بنيامين إن الساعة بلغت الثانية بعد الزوال ، فعجبت لأن الشمس كانت محجوبة عن المدينة ، فلما تقدمنا إليها خمنت أن سبب ذلك ، ربما كان قلعتها العالية المشيدة على نتوء جبلى عظيم العلو ، ثم بدا لى سور المدينة ، والحق أقول إننى لم أشاهد سوراً مثله فى الضخامة والارتفاع من قبل ، وقد عرفت بعد استقرارى بأنطاكية

أن لهذا السور ثلاثمائة وستون برجاً ، يطوف عليها أربعة آلاف حارس، يضمنون حراستها سنة، ويُستبدلون فى السنة التالية ، وهذا السور مبنى على السهل والجبل وهو عجيبة من العجائب .

كان عدد كبير من الناس قد تجمع لمشاهدتنا وقت وصولنا ، وقد قيل وقتها أن هؤلاء قد ترقبوا وصولنا ؛ لأن البرق الشامى كان قد سبقنا يعلمهم بأمر حلولنا على المدينة ، بعد الذى جرى فى الكور البشمورية والأراضى الموحلة ، فصار الناس يهللون لمقدمنا ، ولم أدر ساعتها أهللوا بسبب نصرة خليفة المسلمين ، أم لأنهم من أهل المِلّة مثلنا وعلى جادة المستقيم فى حب المسيح؟ وقد علمت بعد ذلك أن بَطرك أنطاكية رحّب كثيراً بحلول البشامرة على هذه المدينة الإيمانية العظيمة .

ثم إنهم ساقونا إلى بيعة كبيرة بالمدينة سمعتهم يطلقون عليها بيعة القسيان وذلك حتى يتسنى لهم إحصاؤنا وفرزنا مجدداً ، فى سبيل إرسال من يشاؤون إلى بغداد ، واستبقاء من يريدون استبقاءه فى أنطاكية ، وإرسال بعض الأسرى لبيعهم فى سوق النخاسة الكبير بالشام.

وجدت أن البيعة مهيبة ، ذات أسوار ضخام ، لبابها العالى صحنان أحدهما لساعات الليل والآخر لساعات النهار ، يعمل كل واحد منهما اثنتى عشرة ساعة - كما أدركت فيما بعد - فلما ولجت منه ، أى الباب ، ودخلت مع الداخلين إلى باحاتها الفسيحة المترامية حيث وضعونا ، كان هناك من الخدم والمسترزقة ما لا يحصى ، ثم أنه برز من ديوان مخصوص بأحد أطرافها جماعة من الكتاب جاؤوا بقراطيسهم وأقلامهم وراحوا يسجلون ما يخص كل شخص منا بعد إحصائنا ، وذلك ما عدا النساء والأطفال ، الذين كان يجرى حصرهم دون الوقوف عند صفاتهم وماهيتهم ، فمن كان من أهل الحرب جنبوه فى ناحية ، ومن كان من أهل الزرع والحرف المعاشية وضعوه فى ناحية أخرى، حتى انتهوا من ذلك دون أن

يتركوا شيخاً أو شاباً أو صبياً أمرد ، ثم إنهم بعد أن تمموا عملهم وزّعوا على الجميع الزاد والقوت ، فجلسنا نأكل ، وبعدها تركونا نغتسل فى حمامات السبيل ، وهى المنشأة بجانب سور البيعة لأجل السابلة والعوام والمساكين، فلما دخلت الحمام وجدت أن ماءه عذب سيح ، ووقوده من خشب الآس الجيد ، فتطهرت وحمدت الله على كل حال حمداً عظيماً .

كان الفرّازون قد ترددوا طويلاً فى تصنيفى وتجادلوا زمناً حول حقيقتى ، فمنهم من كان يرى أننى كاذب دعىّ على الكنيسة ، أتمسح بمسوحها حتى أنجو من البيع في سوق النخاسة، أو من الحشر فى زمرة الفلاحين ، وكان آخرون يرون أننى من أهل الكنيسة حقاً ، فلا يجوز أن يتحمل وزرى أمام الله يوم القيامة عندما يسأل ، لأن قرآن المسلمين أوصى بأهل الكتاب خيراً ، وكان هؤلاء من المسلمين الأتقياء الذين سأظل أدعو لهم بالخير والصلاح ما حييت ، وقد رجحت كفتهم فى النهاية ، خصوصاً عندما أشاروا بضرورة مثولى بين أيدى آباء الكنيسة لحسم أمرى بالاختبار والوقوف على حقيقة درايتى بالديانة ، وقد سارعوا بذلك بعد أن أكلت واغتسلت مثل الجميع، فأدخلونى فى قلاية على بعض الآباء الذين يطلق العرب عليهم قساوسة ، وقد كانوا ينعتون كل من ارتدى مسوح الكنيسة بهذه الصفة ، فلما دخلت عليهم رحت أجأر بالشكوى لهم مما حل بى ، لكنى أدركت أنهم لا يفهمون ما أقوله ، لأنهم كانوا يتحدثون لغة غريبة ، وليست كلغة العرب ، ثم كان بينهم شيخ طاعن فى السن ، طلب منى الكلام بحكمة وهدوء ، وكنت أتكلم بالقبطية المتخالطة ببعض العربية قدر استطاعتى ، وكان العسكر إلى جانبى وقوفاً وأنا بين أيديهم ملتاع مأخوذ مما أنا فيه، ثم إن ذلك الأب الشيخ أخذ يسألنى سؤالات عن أحوال البيع فى مصر ويتقصى عن أحوال الديانة والأقباط فيها ، وكنت أتعجب خلال ذلك ، وأنا أجيبه عما يسأل بكل أدب واحترام ، لأن سؤاله كان بلسان

قبطى لم يخل من لكنة غريبـة ، وبدون أن أتمالك نفسى وجدتنى أندفع ، وليغفر لى الرب ، وأسأله بلهفة عارمة :

– هل أنت قبطى يا سيدى؟

بدا الرجل لى طيباً دَيِّنا ذو سحنة سمـحة ، وقد تأكد لى ذلك عندما رد علىّ قائلاً بهدوء :

– كلنا عبيد اللّه يا ولدى. أمى أمها قبطية .

ثم إنه خاض معى فى سـؤالات عن الصلاة والصوم وشؤون العـقيدة والسبوت والذى يصح فيها ، فقلت له إن « السبت إنما جُعل لأجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت . فابن الإنسان هو رب السبت أيضا » . وهذا ما قـاله المخلّص ورويت له قصـة هذا القـول كمـا وردت على لسان مـرقس الرسول والتى كنت أحفظها عن ظهر قلب كما رواها لى عزيز عينى ثاونا، إذ إن السيـد اجتاز فى السـبت بين الزروع فابتـدأ تلاميذه يقطـفون السنابل وهم سائرون ، فقال له الفريسيون : « انظر. لماذا يفعلون فى السبت ما لا يحل؟ ». فقال لهم : « أمـا قرأتم قط ما فعله داود حين احـتاج وجاع هو والذين معه ؟ كيف دخل بيت الله فى أيـام ابياثار رئيس الكهنة وأكل خبز التقدمة الذى لا يحل أكله إلا للكهنة وأعطى الذين كانوا معه أيضا » .

فلما سمع منى ذلك، خـلت أنه قد ابتسم قليلاً وهز رأسه مـوافقاً ، ثم كلم العسكر بلسانهم العـربى أن يتركونى لأنه سيقبلنى فـى البيعة ، ثم كلم الآباء بلسـانهم الغريب عـلىّ ، فتـركنى العسكر فى القـلاية ومضـوا لشؤونهم.

مكثت زمناً أعمل قيماً ببيعة القسيان فى خدمة الأب توما، ومسؤولاً عن شؤونه بقلايته المخصصة له بأحد بروج البيعة ، وقد جرت العادة على أن تكون قلايات الآباء مكرسة فى بروج البيعة العديدة ، وأن يكون عبيد كل منهم قاطنين فى الأسفل ، ومن خلال عملى هذا تعرفت على الكثير فى هذه الكنيسة التى بدت لى مختلفة فى كثير من الأمور عن كنيستنا القبطية ، وإن كانت كما أظن من أعظم كنائس الرب فى هذه المعمورة ، فأهل البيعة من الآباء وسائر الأكليروس يعيشون فى رغد من العيش ، على العكس من كنيستنا ببر مصر ، ونظام الخدمة هنا مختلف فى أمور عدة عنه فى مصر ، ودستور الإيمان كان يتلى صباح الخميس الكبير أمام الأسقف أو الكاهن، وكان التائبون الذين يأتون من الآريوسيين والمقدونيين والنوفاتيين والأبوليناريين يُقبلون بعد مسحهم بالميرون المقدس على الجبهة والعينين والأنف والفم والأذن ، أما البولسيون والأقنوميون فكانوا يعمّدون بغطة واحدة ، والمونتانيون والصقليون الذين يعتقدون بأن الأب والابن أقنوم واحد فهؤلاء يقبلون كالأمم ، أى فى اليوم الأول يعدون مسيحين ، وفى اليوم الثانى موعوظين ، وفى الثالث يستقسمون بالنفخ فى وجوههم وفى آذانهم ثلاثاً ، وهكذا يوعظون ويبقون مدة فى الكنيسة ويسمعون الكتب . ومثلهم المانويون . أما النساطرة فينبغى أن يعترفوا بالإيمان كتابة أو أن ينكروا هرطقتهم مع نسطوريوس وأوطيخا . وكان القربان يتناول باليدين وهما متقاطعتان ، اليمنى فوق اليسرى بشكل صليب والخمر من الكأس .

وكان القداس يبدأ بقبول تقادم الشعب وبتهيئة القرابين وتقدمتها على البروثيسيس ، ثم بقراءة الذيبتيخة وكانت تشمل ذكر الأحياء والأموات من الباباوات وجميع الكهنة والشمامسة ، ثم الأباطرة ، فالشعب ، وكانت الشمعة تسبق الإنجيل والترتيل : « هلموا نسجد ونركع » ، وبعد ذلك يصعد الأسقف إلى السنثرونون ويبارك الشعب ، وبعد هذا تقرأ الرسائل

إشارة إلى أن المسيح أرسل تلاميذه ليبشروا بالإنجيل ثم يتلى الإنجيل ويقبل العطاء وينادى الشماس بخروج الموعوظين ، وعند هذا الحد يفتح الكاهن الاندبمنسى أى القائمة مقام المائدة ، ويصار إلى الايصوذن الكبير المعروف بدورة القداس وفيه تدخل القرابين ، وهى لا تزال غير مقدسة ، إلى المائدة . والايصوذن الكبير ، كما فهمت من الأب توما ، يرمز إلى نقل جسد يسوع من الجلجلة أى المذبح إلى القبر أى المائدة ، وكان الشاروبيكون يرتل عندئذ ، وذلك لمناسبة دخول الملائكة والروح القدس والقديسين مع المسيح الملك ، وكنت أتأثر للغاية عندما يتلى :

« أيها الممثلو الشاروبيم سرياً والمرنمون التسبيح المثلث التقديس للثالوث المحيى لنطرح عنا الآن كل مهمة دنيوية ؛ لأننا مزمعون أن نستقبل ملك الكل محفوفاً بالمراتب الملائكية. بحال غير منظور. هللويا » .

وكانت المراوح تعمل دون توقف أثناء ذلك ؛ لأنها تمنع وقوع شيء من هوام الهواء فى أوانى الخدمة وهى تشير إلى أجنحة الساروفيم الستة . وكان من الممنوعات فى بيعة القسيان ، بعد دخول الكهنة مساء السبوت إلى الهيكل ، أن يحنى أحد ركبتيه حتى عشية الأحد التالى ، لأن الليل الذى يلى السبت يتخذ تقدمه لقيامة المخلص ، ومنها تُبتدأ النشائد الروحية ويقام العيد من ظلام إلى نور .

كان الأب توما من أحن الناس الذين عرفتهم طوال حياتى ، وكان كريماً عطوفاً ديناً ، وقد سبق له أن طاف بكثير من كنائس وأديرة مصر وفلسطين وبيروت وأقريطش وقبرس ، وعرفت أنه أمضى زمناً طويلاً بالبلاد المصرية عرف خلالها اللسان القبطى ، أما ما كان يحببنى فيه كثيراً فهو ولعه بالتراتيل الكنسية على نغمات الموسيقى ، وكان يحفظ تراتيل الأقدمين كما قال لى مثل ما ابتدعه رومانوس المرتل الابيروتى الشهير ، وصفرونيوس من القدس ، واندراوس الأقريطى الذى ولد فى دمشق ،

وخدم زمناً فى كنيسة القيامة ، لكنه جنح حيناً إلى المونوثيلية ثم تاب ، وكان الأب توما مولعاً بتدوين الألحان عن طريق علامات ورموز يقرأها بعدما يدونها فى قراطيس مخصوصة ، وكنت خلال عمله فى التدوين أقف بين يديه لساعات حاملاً الشموع أو ملبياً لطلباته ، دون أن أجرؤ على النطق أو الكلام ، لفرط تنبهه أو انصرافه لما يقوم به . لكنى فى إحدى المرات جرؤت على الكلام وقد أكلنى الفضول فسألته عن معنى ما يدّونه من إشارات ؛ فقال :

- ألا تعرف هذا ؟! ألم تر أحداً يدون ألحاناً كنسية فى بيعتكم بقصر الشمع .

فلما أجبت أن لا . . دهش وسأل مرة أخرى :

وكيف تحفظون نغمات الثاذوكيات والتراتيل الجليلة ؟

قلت بسرعة :

- لدينا المثلث والمزهر ، ولعلك اطلعت على ذلك وقت إقامتك فى بر مصر ، لكنا لا نستخدم مثل هذه ، وكنت أقصد ما يستخدمه فى العزف وهو آلة من أوتار عدة يقال لها اللير .

لم تكن الألحان الكنسية أو نظام الخدمة ، هو المختلف هنا فى كنيسة أنطاكية عن كنيستنا فى مصر فقط ، فبيعة القسيان هذه التى تنسب إلى الملك القسيان كما أخبرنى الأب توما والذى أحيا ولده رئيس الحواريين بطرس الرسول ، كانت لا تنقطع عنها المحاكمات الكنسية الخطيرة ، وتعقد بين حين وحين ، وذلك بسبب تفشى الهرطقة وانتشارها بالمدينة والمناطق المحيطة بها ، كما أن المجاميع اللاهوتية كانت كثيرة الحدوث هنا ، لأن البيعة هى البيعة العظمى لساير المشرق سيريا ، وكيليكيا الكرجية ، وكذا بلاد ما بين النهرين.

وفى أحد الأيام ، وبعد انتهاء الهيئة الكنسية من قداس البريجيازمينا والذى يقام فى كل أيام الصوم الأربعينى المقدس ، ما عدا يومى السبت والأحد ويوم عيد البشارة ، حدثت ضجة عظيمة عند الباب الشرقى للبيعة ، وسرعان ما اندفعت جماعة من المؤمنين وهم يسوقون عدداً من الرجال والنساء ، وقد أصابوهم بضرب مؤذ ، إذ كان الدم يسيل من رؤوسهم وأنوفهم وأبدانهم ، وما يتنكرون به من جلود حيوانات ويصنعون به وجوههم على هيئتها ، فلما خرجت لأستجلى الأمر مع جميع من خرج من أهل البيعة ، علمت أن هؤلاء الناس وجدوا وهم يمارسون الطقوس الوثنية القديمة احتفالاً ببدء السنة الوثنية وفقاً للطقوس الممنوعة والتى تتضمن تكريم كرونوس إله الزمان ، وأن هؤلاء ضبطوا بعد أن كرسوا الأسابيع الثلاثة بين الرابع والعشرين من تشرين الثانى، والسابع عشر من كانون الأول وهذه من أسماء الشهور فى أنطاكية - لشرب الخمر ، وتغيير الأزياء ، والرقص ، وغير ذلك مما شاع فى عهد الوثنيين احتفاءً بعيد إله قديم يسمى باخوس . وما أن استقر هؤلاء بباحة الكنيسة حتى سارع إليهم الآباء والرهبان وراحوا يشاركون المؤمنين فى سب هؤلاء الرعاع ، ويوسعونهم ضرباً وركلاً، حتى أصاب أكثرهم الإعياء وسقطوا على الأرض موشكين على التلف، ثم سرعان ما ساقوهم إلى حبس الكنيسة لحين عقد محاكمة لهم ، بسبب مخالفاتهم لما منعه البابوات من قبل ، وخصوصاً أن هؤلاء كانوا يقيمون الميومة أيضا وهى ضرب من احتفالات الربيع ، وكانوا يقون النيران فى أول الشهر القمرى ، ويتبادلون الألبسة بين النساء والرجال لمناسبة عيد القطاف ، وكله من الممنوعات المُشرعة كنسياً .

بعد انفضاض ذلك وخلودى إلى نفسى بالليل إثر انتهاء خدمتى ، هاجت بداخلى ذكرى العزيز ثاونا ، فرحت أستعيد صورته وهو يسلك مع

الناس ، ويدفعـهم دفعاً عطوفاً هيناً ليـناً للوصول إلى نبع الإيمان ، لم يك يعنفهم أو ينهرهم قط، ولم أره يومـاً مؤذياً لأى علمانى جاهل ، لم يقف على حقيـقة الديانة من قبل، وكان صبوراً ، مـثابراً فى الرد على سؤالات هؤلاء، مهـما كانت سـاذجة سخيـفة ، تشوبهـا فجـاجة فى كـثيـر من الأحيان . وجـدتنى فجأة أحادث روحى ، بينـما أتطلع إلى سماء غـاضبة ملبدة بغيوم ليلية سوداء ، عبر كـوة قلايتى الضيقة ، كـان حنينى لبر مصر وسمائها الصـافية المرصعة بالنجمات قد وصل إلى مـداه ، فسحّت دموعى وأنا أردد كلاماً منظوماً حفظتـه ، عن ظهر قلب من بنيامين الصورى الذى ما فتئ يغنيه بينما كنا عند الوقايد فى جوف الحراقة، فرحت أقول:

صـــــبـــــراً لـدهر نـال منـك　　　فـــــهـكذا مـــــضـت الدهـور

فـــــرح وحـــــزن بعـــــده　　　لا الحـــــزن دام ولا الســــرور

كنت منقبضاً جداً بسبب مشاهد العذاب التى وقعت عليها عينى خلال اليوم المنصـرم ، فتهـيجت مشاعـرى ، وقد تذكرت مـا رأيته من آلام عند خروجنا من الأراضى البـشمورية ببـر مصر ؛ الجثث المُـلقاة فى كل مكان بعد القتـال ولا تجـد من يدفنها ، الجرحى والمتحرقون الصـارخون بآلامهم وأوجاعهم ومنهم من ينادى طالباً شربة ماء ، فلا يعثر على من يسمع نداءه ، النساء والأطفـال وهم يسيرون بصعـوبة ومشقة دون أن يتـعطف عليهم أى إنسان يشعر ما هم فيه من عذابات، ثم ما جرى لآمونة وسويلا ، واختفاء ثاونا الذى يأكل روحى السـؤال عن مصـيره، ثم ضـياعى فى هذه الـبلاد الغريبـة ، التى ما كنت أظن يومـاً أن قدمى ستطأهـا قط ، وأخيراً كنيـسة أنطاكيـة التى بدت روحها غريبـة - بالنسبة لى- عـن روح كنيـستنـا بعض الشىء ، ولم أعتد طقوسها ، ونظام الخدمـة فيها يختلف عن نظام الخدمة فى كنيستنا المصرية ، فعندما كـانوا يجرون سر المعمودية ، كان الموعوظون

يأتون إلى البيعة لابسين ملابس بيضاء ، ويقصدون حوض ماء يغمرهم فيغطسون فيه ثلاث دفعات على اسم أبى الأنوار وابنه والروح القدس ، بعد أن يكونوا قد جدّدوا اعترافهم بالإيمان ، وأقروا بأن لا صلة لهم بعبادة الأوثان والشياطين التى كانوا يعبدونها ، أما بالنسبة لعديمى النطق أى الأطفال ، فكان يتكفل بتربيتهم وتهذيبهم بحسب مبادئ الإنجيل أشخاص فضلاء يدعون أشابين ، أى وكلاء ، وهؤلاء عند المعمودية يقومون مقام الأطفال بالاعتراف بالمسيح والكفر بالشيطان .

مرت أيام كان خلالها يجرى التجهيز لطقس اعتراف الذين جرى سجنهم بعد أن عذبوا حتى أعلنوا توبتهم وندامتهم ، وهكذا جيء بهؤلاء إلى ساحة الكنيسة فى الصباح ، وبدوا فى حالة يرثى لها من الضعف والهزال ، وجرى تقسيمهم إلى أربعة صفوف ، صف الباكين وقد وقف عند مدخل الكنيسة حتى يتضرعوا إلى المؤمنين الداخلين إليها ليصلوا عنهم ، وصف السامعين ، وكان هؤلاء مسموحاً لهم بدخول الكنيسة ، وقد ثبت أن خطاياهم كانت أقل من خطايا الأولين على أساس أن يكونوا فى موضع مخصوص لسماع تلاوة الفصول المقدسة والصلاة، ثم صف الراكعين ، وكان يتوجب عليهم الإقامة مدة الصلاة ركوعاً ، ويلى ذلك صف المشتركين المسموح لهم أن يقفوا داخل الهيكل ويشاركوا المؤمنين فى الصلاة ، لكن بدون مناولة الأسرار المقدسة ، وقد علمت من الأب توما بعد ذلك ، لما سألته ، أن هؤلاء كانوا قد أعلنوا أنهم سيدفعون جعالات ذهبية إلى الكنيسة فى حالة تخفيف الأمر عليهم ، كما علمت أن هؤلاء جميعاً ، وقبل الإتيان بهم وتقسيمهم إلى صفوف ، كانوا قد أجروا فعل الندامة أمام عدد من الكهنة ، على أن يقدموا فيما بعد شهادة على تقديس ونزاهة سيرتهم ، تقدم من معتبرين إلى الكنيسة .

وعلى رغم تعجبى من كل ذلك ، وعدم ابتلاعى لكثير مما يجرى فى بيعة القسيان ، إلا أننى لم أكن أحسب أن ما رأيته، لم يكن إلا قليلاً من كثير سوف أعيش حتى تراه عيني وتستشعره نفسى.

ففى إحدى الليالى الربيعية وبعد قدومى إلى البيعة بحوالى سنة وكسر ، حدث بعد أن تكاثرت الأمطار أكثر أيام الشهر ، وكان شهر نيسان بلغة السريان . . واستمرت فى تواصلها ، زخمت السماء ببرق ورعد ، أكثر مما ألف وعُهد ، وسمع عنها أصوات كثيرة مهولة أزعجت النفوس ، ثم وقعت فى الحال صاعقة على صدفة مخبأة فى مذبح البيعة ففلقت من وجه النصرانية قطعة تشاكل ما نُحت بالفأس والحديد الذى تنحت به الحجارة ، وسقط صليب حديد كان منصوباً من علو على هذه الصدفة وبقى فى المكان الذى سقط فيه ، وانقطع من الصدفة قطعة يسيرة ، ونزلت الصاعقة من منفذ فى الصدفة ، تنزل منه إلى المذبح سلسلة فضية غليظة يعلق فيها الثيموطلون ، وسعة هذا المنفذ إصبعان ، فتقطعت السلسلة قطعاً كثيرة ونسبك بعضها ، ووجد ما انسبك منها مُلقى على وجه الأرض ، وسقط تاج فضّة كان معلقاً بين يدى مائدة المذبح ، وكنا قد هرعنا جميعاً إلى موضع الخدمة بالكنيسة محاولين إنقاذ ما يمكن من أدوات الخدمة ، فكان مما وجدناه أن الثلاثة كراس الخشبية المربعة فى غربيها ، والموضوعة على علو قد سقطت عنها ، وقلعت صلبانها الفضية الكبار المطعومة بالذهب والتى كانت منصوبة عليها، بينما انكسر الكرسيان الطرفيان وتشظيا، وتطايرت الشظايا إلى داخل المذبح لا إلى خارجه ، من غير أن يظهر فيها أثر حريق كما ظهر فى السلسلة ، ولم ينل الكرسى الوسطانى ولا الصليب الذى عليه شىء ، وكان على كل واحد من الأعمدة الأربعة الرخام التى تحمل القبة الفضة التى تغطى مائدة المذبح ثوب

ديباج ملفوف على كل عـمود فتقطع كل واحد منها قطعاً كـباراً وصغاراً ، وكانت هذه القطع بمنزلة ما قد عفن وتهرأ ولا يشبه ما قد لامسته نـار ولا ما احـترق ولم يلحق المـائدة ، ولا شيئاً من هذه الملابس التى عليها ضرر ولا بان فيها أثر.

غـير أن من المصـائب التى جـرت ، انقطاع بعض الرخـام الذى بين مـائدة المذبح مع ما تحـتـه من الكلس، والنورة كـقطع الفأس، وكـان من جملته لوح رخام كبير طفر من موضـعه فتكسّر إلى علو تربيع القبة الفضية التى تغطى المائدة وبقيت هناك على حالها ، وتطافرت بقيـة الرخـام إلى ما قُرب من المواضع ، وكـان الأب توما أثناء ذلك حـاملاً فـراخ قناديل زجاج ، محاولاً إنقاذه والهرب به بعيداً عن موضع التكسير ، لكن شظية من الرخام خـبطت القنديل فتكـسر، لتـمسك النار بقـمـيص نومه المصنوع من الخـزّ الخفـيف اللين ، فتـحـول فى لحظات إلى ثوب من لهب ، فـما أن رأيت ذلك ، وكنت وقـتها مـشغـولا بإنقاذ منجلـية قديمة مـصنوعة مـن خشب الأبنوس ومطعمة بالفضة والعاج ، حـتى تركت ما بيدى وجريت ناحيته ، وكذا فعل كل من كان بهذا الموضع من أهل البيعة ورأى النيران تمسك به ، ورحنا جميعاً نحاول إطفاءه ، فـرمينا عليه زربية صوف مما يفرش فى أرض الكنيسـة لمنع الهواء ، وكـذا طيلساناً مـبلولاً ، ثم حملناه سريـعاً إلى فناء البيعة ووضعناه تحت سيل المطر المُنهمر ، إلا أنه سرعان ما وافانا بعض من عبيده بسطل مملوء بولاً ، وسارعوا بصـبه عليه من أعلاه إلى أسفله بعد أن أخذناه مرة أخرى بعيداً عن المطر ، وقد دهشت لفعل النجاسة هذا كثيرا ، لكننى عرفت بعـد ما هدأت الأمور أن ذلك مُجـرّب ومفيد جـداً فى علاج الحـريق .

بقى الأب توما عدة أيام يصارع الموت ، فقد تحرق معظم جلده ولحمه ورأسه ، وغـارت النار إلى بعض أحـشائه ، وسـملت عيناه ، وكـان آباء

البيعـة المشهور عنهم الحكمة والتطبيب ، قـد بذلوا كل علمهم فى الحكمة والمداواة لأجل شفائه ، فعالجوه بالمراهم المعمولة والعقاقير المخصوصة ، أما الشمـامسة والقـسس فقد سـهروا على رأسه بالقـرايات الإنجيلية والأدعـية الربانية الشافـية، فبدا لحين أنه يتحسن ويبـتعد عن التلف، ولكنى كنت - وليسامحنى الرب - غير مطمئن إلى مـا سوف يكون عليه حاله ، فما أحد منهم صنع حجاباً أو قرأ مقروءً يفيد حالته ، فلما تسلسل فى المرض أشرت عليهم بكل تواضع وأدب أن نفعل له ما فعلناه يوماً ببر مصر مع المحروقين فى المعـادى وقت ريح الحسـومات ، فقـد أشعلت الريح ، هـذى وكانت شديدة متربة أكثر من عـادتها كل عام ، النيران بأكواخ بعض من أصحاب المعادى على النيل ، فتحرق بسبب ذلك كثير من الناس ، فذهبت مع ثاونا وآخرين من البـيعة فى قـصر الشمع إليهم ، وكـان ثاونا يعالجهم بعـصارة العمـعت الأسود وبعر المعز المحـروق المختمـر جيداً ولبخـة الخرنوب، مع عزيمة تُقرأ على موضع الحرق، وكنت أحفظها عن ظهر قلب لكثرة ترديدى لها وهى :

«حوريس يا ابن الشمس، النار فى البلد، فـإن كان هناك ماء ، أو لم يكن ؛ فالماء فى فمك والنيل فى أرجلك متى جئت لإطفاء النار » .

وكانت هذه العـزيمة تُقرأ أيضـاً على لبن امرأة ولدت غـلاماً ، وعلى رغيـف خبـز ، وعلى صوف كـبش ، ومجـتمع ذلك يوضع على الحـرق كلبخة فيفيد للغاية ، غير أن الجميع هنا فى كنيسة أنطاكية رفضوا ذلك كله ، بل ظهر من سَخَـر من ذلك ، فتأسفت أشد الأسف لـعدم تقديرهم لما هو مجرّب، ومتّبع منذ أقدم الدهور ، ولعدم تصديقهم إياى فى ذلك ، ثم أن الأب توما تسلـسل فى المرض ودخل شيئـاً فشـيئاً فى زمن الغـياب وحـيّز الضياع والتلف ؛ وقد أعقب ذلك بوقت قـصير حدوث زلزلة مكثت مقدار ساعـة ، وسمع صـوت هائل من السمـاء ، ووقعت بنايات كان قـد بناها

الملك يوستينوس ، ومات تحت الردم خلق كثير ، قيل إن عددهم أربعة آلاف وثمانمائة وسبعين رجلاً ، وكل من تبقوا من ذلك الرجز بالمدينة هربوا ومضوا إلى أماكن أخرى ، وغرقت مراكب بالبحر بسبب المد ، ونفقت بهائم ، وفسد مد القمح المخصص ، والذى كان يُرسل لها كل عام من ملك الروم، ويبلغ ستة وثلاثين ألف مد ، وحدث فى أعقاب ذلك أن كثرت الفئران بالمدينة ، وخصوصاً ذلك النوع العظيم كالودل الذى لم أره فى أى بقعة غير أنطاكية ، وأتلف كثيراً مما تبقى من الزرع بعد الزلزلة ، وقد خافت الناس وتضرعت إلى الله ألا يبلو المدينة بطاعون من الطواعين التى تتلازم مع كل ذلك .

ألحقونى بعد وفاة الأب توما مباشرة بخدمة الأب ميخائيل ، وكنت قد تعرّفت عليه لماماً قبل ذلك ، فقد كان ذلك الشيخ ذا العينين المحولّتين دوماً ، والندبة الغائرة فى جبينه ، يتودد إلى كلما رأيته عابراً بدهاليز البيعة أو ماضياً بساحتها لأمر من الأمور ، فيبتسم ويحيينى وهو يرسم علامة الصليب مباركاً لى ، وفى ذات مرة استوقفنى قائلا :

- لدى رقّ قبطى قديم . هل جئت ساعة إلى قلايتى لتقرأه لى ، بعد انتهاء خدمتك .

فرحت جداً لأننى وجدت شيئاً يذكرنى بوطنى ، هنا فى أنطاكية، فقلت متلهفا دون أن أكتم مشاعرى :

سمعاً وطاعة ياسيدى. سآتى إليك بعد الغروب عندما أفرغ من مطالب الأب توما ويأذن لى بالانصراف إلى موضع سكنى. ابتسم ابتسامة لن أنساها ما حييت وراح يتأملنى من قمة رأسى إلى أخمص قدمى بتفحص ، وسرور ، ثم أردف:

تعال ، ولسوفَ أدعوك إلى أكلة حلاوة حمراء ربما لم تذق مثلها من قبل.

لا أعرف، لماذا داخلنى شىء من عدم الراحة آنذاك ، رغم شوقى لأكل حلاوة سد الحنك التى يطلقون عليها هنا فى أنطاكية حلاوة حمراء ، ورحت أتذكر كيف كانت تعدها أمى لنا ، فى المساء ، ليلة عيد الغطاس ، وكيف كنا نتحلق حولها ، أنا وأخوتى ، بينما هى تحمّر الدقيق فى لية الخروف وتضيف إليه شيئاً فشيئاً شراب السكر ، حتى يحمّر ويتحرّق وتتصاعد رائحته شهية محببة إلى أنوفنا ، فنأكله ساخناً حاراً فى عز برد طوبة العنيف ، كانت نظرات الأب ميخائيل هى التى أحرقت شيئاً ما بداخلى ، خلال تلك اللحظات التى استوقفنى فيها، فمضيت بإحساس الملسوع مسرعاً إلى قلاية الأب توما ، أخطف خطواتى خطفاً ، عابراً فناء

البيـعة ، فلما أدركـته وحكيت له ما كـان من أمرى مع الأب ميـخائيل ، ورحت أستأذنه فى الذهاب إليه ، بعد انتهائي من خدمته . حدجنى بنظرة طويلة باردة متـسائلة ، وكأنه يـبطن شيئـاً بداخله ، ثم قال بامتـعاض لم أعهده فيه من قبل :

ستكون مشغولاً معى بعد الغروب ، لأن الهيئة الكنسية ستجتمع كلها استعدادا لمحاكمات سوف تعقد فى الغد . ثم قال بإصرار :

- إياك أن تتخلف عن هذا .

كان الأب ميخائيل ، قبل انتقـالى إلى خدمته ، يبدو لى إنسانا هادئاً وديعـاً ، رغم عدم ارتيـاحي له ، لكنى عندمـا اقتـربت منه وعـايشتـه ، تكشف لى عن كـائن غامض غـريب الأطوار ، وشيـئاً فشـيئـاً أيقنت أنه شيطان فـاسد الخلق بحق ، فلقد كـان يدهن وجهه وراحـتيه كل مـساء ، وقبل أن يخلد إلى النـوم ، بمعجون من الزبد والعـسل ، كما كـان يتعطّر بزيوت فواحة كالتى تتدلك بها النساء ، ثم إنه كان يبيت بقمصان بلا أكمام فى العادة وذلك خـلال الليالى الحارة ، وفى أحد الأيام صـرفنى مبكراً ، وظل بصحـبة أحد الفتـية الحمـالين الذين يجلبون الأخشـاب من الغابات الواقعـة بالجنوب الغربى من المدينة ، وبـعد قليل من التحـاقى بخدمـته ، بدأت ألاحظ أن كثيراً من الشمامسة والرهبان يتجنبونه ولا يصطفون بجواره أثنـــاء الصلاة ، أو يـجلسون ناحيـته أثناء العشـاء ، وفى إحدى المرات ، جرت محاكمة مجموعة من الناس لجأوا إلى السحرة والمشعوذين ، وكذلك رجل كان يعرض الدببة وغيرها من الحيوانات ويبيع صوفها تعاويذ وأحرازا ، وطالت المحاكمة لكثرة المخـالفين ، إذ كان هناك رجل تغيّب عن الاشتراك فى صلوات الآحاد ثلاث مـرات متتاليـة ، رغم أنه علمانى وليس من أهل الكنيسة ، وكذا امرأتان كانتا قد ثرثرتا وبقبقتا فى أثناء صلاة عيد القيامة ، وجمـاعة مـن تجـار العطور أتلفوا الكتب المقـدّسة وباعـوها ليصنعـوا منها

أبواقاً، فلما تأجلت المحاكمة إلى صبيحة اليوم التالى بسبب دخول المساء ، جيء عند موعدها بامرأة ورجل ، وكانت المرأة صبية فى قمة الجمال ، وقد أدينت مع الرجل لأنهما يتعاشران معاشرة الأزواج ، ويتخذان من صناعة الصور الفاسقة معاشاً لهما ، بعد أن يرسماها ويروجاها ، وقد أدينت المرأة أيضا لأنها كانت تتفنن فى ترتيب شعر رأسها للفت النظر والإغواء ، فلما صدر عليها الحكم ، وهذا ما لم أكن قد شاهدته من قبل- أى أن يحكم على إنسان لمثل هذه الأمور- لاحظت أن الأب ميخائيل ظل ساكنا واجماً ، وكذا طوال فترة المحاكمة على عكس جميع من كان حاضراً من الهيئة الكنسية، فقد صار لغط كثير وتزاعق بسبب أن المرأة والرجل رفضا التوبة والندامة والاعتراف بخطيئتهما ، بل وسبا الكنيسة وقالا إنها تحرم ما أحله الله ، وأن الرب قد خلق النساء والرجال ليتمتعوا بالحياة ويرفلوا فى لذائذها ، وأنه لو لم يرد أن تتمتع النساء بالرجال ، والرجال بالنساء ، لكان قد خلق الناس أجمعين من نوع واحد فقط ، وكلام آخر من هذا النوع مليء بالهرطقة والكفر مما يشيب له الولدان ، فلم يتمالك الجميع أنفسهم ، ثم إن هذين الشيطانين أنكرا صعود السيد السماوى ، وقالا إن البتول ما كانت بتولا ، وأنها ولدت سفاحاً من يوسف النجار ، فلم يحتمل بعض الآباء عند ذلك الحد وراحوا ينتفون لحاهم غيظاً وغضباً، بينما أخذوا يلطمون ويولولون كالنساء ، وأوشكت جماعة من المؤمنين الحاضرين على الانقضاض على الرجل والمرأة للفتك بهما ، لكن الحراس حالوا دون ذلك ، كل هذا والأب ميخائيل واجم صامت ، وكأن الأمر لا يخصه أو يعنيه .

كان القلق قد أخذ يتزايد بداخلى كلما مضت أيامى فى خدمة الأب ميخائيل ، إذ كان يصر على أن أقوم بتكبيسه وتدليكه كل ليلة قبل أن ينام ، متذرعاً بوجود آلام بلحمه وعظامه تتزايد أثناء الليل ، ولا تزول عنه

إلا بالتكبيس ،ورغم كـراهيتى لهذا العـمل إلا أننى كنت أقوم به ولو على مـضض ، بسبب دأبى عـلى طاعة الآباء وعـدم عصـيـانهم ، وذات ليلة وجدت الأب ميخائيل يلاطفنى بالقول ، ثم يدعونى لشراب كأس من عرق العنب مما اعتاد شربه كل ليلة قبل الـنوم، فلما تمنعت، قال لى إنه ما فعل ذلك إلا بعد أن لاحظ كـونى مهموماً يائسـاً ، وكان على حق فى ذلك ، فقد كنت خلال ذلك اليوم متعكّر النفس، حزيناً، وقد هاجت علىّ الهموم وصـعب علىّ حالى ، فلـما قـال ذلك خجلـت ، وأخـذت منـه الكـأس تأدبـاً ، ورحت أرتشف منه شـيئاً فـشيئـاً ، بينما هو يسكب مـن البطحة الموضوعة أمامه ويعبّ من كأسه عباً ، ثم أنه شرب حتى بدا ثملا، وتحامل حتى صعد سريره طالباً منى تدليكه ، وهكذا رحت أدلكه بصعوبة إذ كنت خدراً ضعفاناً بسبب الكأس التى شـربت ، وبينما أنا أفعل وجدته يبالغ فى التأوه وافـتعال التـألم ، ثم استدار راقداً علـى ظهره وطلب منى أن أدلك ركيه وقد كـشف عن عورته وموضع العفة فى جسـده ، فلما تمنعت وقد ألجمنى مطلبه ، وجدته يقبض على يدى بكلتا يديـه ويدفعنى دفعاً لملامسته ، وفعـل ما لا أرغب فى فعـله ، فلما بلغ هذا الحـد ، دفعـته بعيـداً عنى وجريت هابطاً من قـلايته بالبرج إلى مـوضعى لأفرغ مـا فى جوفى ، إذ كانت رأسى تدور وأمعائى تثور وحالة مريعة من الغثيان تتملكنى .

لم يغمض لى جفن فى كـنيسة القسيان بـعد تلك الليلة ، إذ أخذت أسترجع كل مـا يقال عن الأب ميخـائيل فى البيعة ومـا كان من أمره منذ مبتدأ اشتغالى بخدمـته ، فلقد كنت ألاحظ أن البعض ينظر إلى بإشفاق ، دونما سبب أفهـمه ، كلما قلت إننى صرت فى خـدمة هذا الرجل ، وفى إحدى المرات همس لى قـيّم شاب ، ونحن نخدم فى تعـميد جمـاعة من الأطفال ، وكنت قـد تعرفت عليه ، أن أنتـبه من الأب ميـخائيل ، فلمـا

استحلفته ، وكنت قد شعرت بالقلق لغموض عبارته ، أن يقول لى معناها ، أخبرنى وهو فى حالة من الوجل الشديد أن معظم الذين خدموا مع هذا الأب انتهوا نهايات غامضة وبدون سبب مفهوم ، فمنهم من اختفى ولم يقف أحد على مصيره ، ومنهم من مات فجأة ، وأن سيرة الرجل هنا فى البيعة يشوبها كثير من السوء ، وإن كان أحد لا يستطيع إمساك ممسك عليه لشدة لؤمه وخبثه واحتياطه . ثم إنى تذكرت ما كان من أمر رحلتى معه عندما سافرنا إلى القسطنطينية ، فقد ذهبت فى تبعيته مأموراً إلى القسطنطينية ضمن مجموعة من الآباء الآخرين ، ولم أكن قد حضرت مجامع من قبل ، ولم أسمع بمثل ذلك أبداً فى كنيستنا ببر مصر ، وكان السبب فى ذلك الانعقاد الكنسى الخطير ، كما قالوا ، هو أن شقاقاً قد ذر قرنه بين الأرثوذكسيين وأصحاب الطبيعة الواحدة ، وهب البولسيون والمانويون يشاغبون ، فظلت المناقشات تحتدم ، حتى أقرت قوانين تحرّم تحويل المساكن إلى أديرة بدون موافقة الأساقفة ، وتوجب على كل راغب فى الزهد والتقوى أن يتخلص من ممتلكاته قبل دخوله فى الرهبنة ، ومنع منعاً باتاً أن يقوم بطرك من طبقة العوام أو الرهبان ما لم يتمرس فى درجات الكهنوت درجة درجة ويتمم المدة القانونية فيها . فلما كان المجمع يناقش مسألة الأيقونات ، وكان وقتها منعقداً فى كنيسة الحكمة الإلهية ،. تجمع خلال ذلك عدد من محاربى الأيقونات خارج الكنيسة، وكانوا كثراً ففتحوا أبوابها عنوة ، بعد أن هاجموا الحراس واندفعوا إلى حيث الفوروم محدثين هرجاً ومرجاً زاعقين صارخين ، وحدث هرج ومرج كبير وتم التضارب بالأيدى والركل بالأقدام ، وعطّلوا الجلسات بالقوة ، وكان أمراً لم أسمع أو أر مثله من قبل ، فبينما نحن نتدافع إلى الداخل محاولين الاحتماء مما يحدث ، إذ الأب ميخائيل يدفع بى إلى ممر مظلم ، يؤدى إلى منابر الوعظ والإرشاد بالكنيسة ، وكان الممر طويلاً فبقيت أركض خلفه

حتى وجدتنى أصل إلى باب يفضى إلى موضع من القصر البطريركى المجاور للكنيسة ، فما أن فتحه ودخلنا إلى دهليز أشد إظلاماً ، بسبب أن الوقت كان قد جاوز الغروب بقليل ، والشمس فى القسطنطينية بخيلة كما عهدتها طوال وقت إقامتنا، حتى وجدته يعتنقنى ويربت على جسدى وكأنه يروم تهدئة روعى وإبعاد خوفى، لكنى وجدت فى تَربيتِه مبالغة لم أستسغها ، وخصوصاً بعد ما أخذ فى ضمّى واعتناقى ، وشعرت أن فعله هذا قد تجاوز فعل من هو فى مثل مكانته وحرمته ، وليس بهذا تكون تهدئة روحى وإبعاد خوفى وشملى بالسكينة والاطمئنان ، فتملّصت منه بلطف وذوق ، ولم أكن أظن وقتها أنه على هذه الدرجة من الفسق والشيطنة .

كان الأب ميخائيل قد بات يعاملنى بقسوة وجفاء ، بعد تلك الليلة فى أنطاكية ، فلقد راح يطالبنى بمطالب لم يكن يطلبها منى من قبل ، ففى ذات مرة طلب منى الذهاب إلى الشمال الغربى للمدينة ، حيث منطقة المستنقعات ، لجلب بوصات يبريها ويستخدمها فى التدوين والكتابة ، وكانت هذه المنطقة من المناطق غير المأهولة بالمدينة ، وتكثر بها دويبات وحشية مؤذية ، والذهاب إليها مشقة كما هو معروف للجميع ، ولولا ستر الرب وإلمامى بطبيعتها ، بسبب تشاكل طبيعاتها مع طبيعة مناطقنا البشمورية لكنت قد هلكت فيها لا محالة .

وفى مرة أخرى ، طلب منى إحضار أعشاب بريّة ليتطبب بها من عند المقبرة الواقعة شمال باب الدوق خارج سور المدينة ، وهى بريّة موحشة تكثر بها العقارب وهوام لاسعة من العناكب السامة وخلافها ، كادت إحداها أن تفتك بى ، بعد ما تشبثت بجلد قفاى ، ولولا شعورى وإحساسى السريع بها ، لكانت صبت سمها فى دمى وتلفت لا محالة .

وهكذا ، بتّ أستشعر الخطر من ذلك الشيطان ، وقد أيقنت أنه يريد التـخلص منى بأسرع مـا يكون ، لظنه أننى سـوف أفشى سـره وأفضـحه كلوطى مرذول بين أهل البيعة .

لكن حتى ذلك كـله ، لم يكن دافعاً لإقـدامى على ما أقـدمت عليه بعـد ذلك ، إذ إن الأب مـيخـائيل بـدأ يضعنـى فى ورطة بدا لى أنه لن يخرجنى منها إلا الموت ، فلقد خشيت أن يرمينى بما يرمى به أولئك الذين لا رجاء فى حياتهم ولا نفع فى صلاحهم إلا بالنار المُطهّرة ففى أحد الأيام ، وبعد أن انتهيت من خدمته بعد الغروب ، قال لى بلهجة آمرة :

- بعد انتـصاف الليل ، وعنـدما تهدأ البـيعـة وينام كل من فيـها ، سـتخـرج بهـدوء مـاضيـاً فى المدينة، حـتى تصل باب القـديس جاورجيوس ، وهناك سيقـابلك شخص ، ستعطيه هذا ، ثم تعود كما ذهبت بهـدوء . لن تقول له أكثر من القرنـفلة السوداء تهديك السـلام ، فإن أعطاك شـيئـاً عد به ، وإياك أن تلمـسه أو تحـاول معـرفة ما فيه .

تملكنى الرعب ، وأنا أمـد يـدى لآخـذ منه رقـاً ملفوفـاً وموصـومـاً بختم ، وهو يطالعنى بـنظرات باردة متوعدة ، تنبـئنى بمغّبة المصـير إن أنا خالفـته. لم أكن أعرف مـسالك المدينة جـيداً، فأنا أمـضى جُلّ وقتى بين جدران البيعة ، ولـم يكن مسموحـاً لى بالتجول خارجها ، أو الخروج منها لأمـر من الأمور ، وقـد ذهبت مـرّة أو مرتين إلى مـوضع باب القـديس جاورجـيوس ، أثناء حـياة الأب المرحـوم توما ، فلقـد ذهبنا إلى هناك ، ليبارك الأب امرأة وضعت أربعة توائم ذكـوراً ماتوا بعد قليل ، ومرة أخرى للإتيان بمجـموعة من الناس ، قال الأب تومـا إنهم خالفوا جانبـاً من المئة قـانون وقانونين ، الذيـن شرّعـوا فى مجـمع سنة ٦٩٢ ، وكـانوا يربّون

المـاشية ، ويشربون الخمر ، ويتناولون الـطعام بداخل كنيسة موجودة هناك . رحت أفكر فى ذلك كله، وقد خفت أن أتوه أو أضلّ طريقى فى العودة ، حتى لو نجحت ووفقت فى الذهاب إلى الموضع الذى يريده فى دامس الليل وبهيـمه ، كمـا خشيـت أن يلتقينى لص من اللـصوص أو قطاع الطرق ، فقلت له راجياً :

– لكنـى يا سـيـدى لا أعـرف كـيف أصل إلـى باب القـديس جاورجيـوس، ولا أعرف من هو الشخص المعنى برسـالة غبطتكم على وجه التحديد .

شعرت أنه على وشك افتراسي وهـو يردّ بسرعة ، دون التريث حتى أستكمل كلماتى :

– ستـخرج من الباب الجـنوبى للبيعـة ، ومن هناك ستـسلك طريقاً واحداً عليك السيـر فيه حتى تصل إلى باب جاورجـيوس ، وقبل وصـولك سـوف تكون هناك عـلامـة لن تجـعلك تضل أبداً وهى البيمارستان ، فعندمـا يصادفك ، لا تترك السير حذاءه . عند باب جاورجـيوس ستلقـى هناك أباً جليلاً ، سوف يلقـى عليك السلام بلسان عربى ، ردّ تحيته ، وهات مـا سوف يعطيه لك إذا ما أمرك بأخذ شيء .

قلت محاولاً إيجاد عقبة تحول بينى وبين الذهاب .

– والباب ياسيدى ؟

صرخ بصوته المحشرج المخنوق :

– ستجد مـن يفتحه لك أيها الغبى . ثم إنه تردد قليـلاً قبل أن يقول وهو يبتسم بخبث :

- لو حدث وصادفك شخص عند ذهابك أو مجيئك ، فقل له إنك كنت عند بنت يُحنا .

أسقط في يدى ، وكدت أصعق ، كيف يمكنني قول هـذا ، لو حدث وصادفت إنساناً في طريقي ، فبنت يُحنا هذه مـغنية معروفة بالمدينة ، تحن إلى القرباء ، وتضيف الغرباء ، وكان إذا أراد أحـدهم في البيعة أن ينتقص من شأن الآخر أو يزدريه ، يقول لـه ، ليت لى بنتاً ، تغنيني عنك ، حتى ولو كانت بنت يُحنا.

خرجت مـتسللاً من الـبيعـة بعد انتـصاف الليل ، وقـد هالنى أننى وجدت الباب موارباً بالفعل دون أن يكون عنده أى إنسان ، ثم إننى أخذت أسير مـتسارع الخطى ، وقد تملكنى الخوف العظـيم ، بينما كانت رؤوس الجبال تتراءى لى عن بعد وكأنها خلق شياطين مخيفة تطل علىّ من عليائها على ضوء قـمر شاحب تواريه غـيوم قاتمـة بين الحين والحين ، ثم وجدت نفسى أسـير إلى جوار سـور البيمـارستان كمـا قال لى الأب ميـخائيل ، فشـعرت بارتياب ورحت أترحم على الأب تومـا الذى كان يدخل المرضى إلى ذلك المشفى بنفسه ، ويدخل المجذومين حمّامه ويغسل شعورهم بيديه ، مرة كل سنة ، يعـينه على ذلك الشمامسـة والقيمون في البـيعة ، ثم إنى وصلت ، بعـد حين، إلى باب القديس جـاورجيوس ، وهـو أحد أبواب المدينة ، وقـد بدا لى في هذه اللحظات وكأنه قـريب جداً من البـحر ، إذ كانت رائحة النسـيم البحرى تتسلل إلى أنفى بينمـا تلاطم الأمواج العنيف يبدد كل صمت، فما أن اقتربت من البـاب ، وقد بلغ الخوف مبلغاً عظيماً من نفسى ، حتى وجـدت رجلاً واقفاً ، تبينت على ضوء القـمر الشحيح ملابسه الكهنوتيـة، فما أن رآنى حتى تقدم منى، فقلت له بـصوت مرتعد متـعجل : القرنفلة السـوداء تهديك السـلام يا سيدى ، فـرد على بصوت

جاف ، خلت أننى سمعته من قبل : وأنا أرد عليه سلامه كذلك ، ثم مضى، وقد سلمنى كيساً من المخمل دسسته فى ثيابى ومضيت ، بينما خطواته المنتظمة القوية تضرب الأرض وكأنها خطوات فارس من الفرسان .

رحت أكرر صدى الصوت فى أذنى ، كانت عربيتّه غريبة ، وخيل إلى أنه قال " أرت ، بدلاً من أرد ، ظللت أهجس بذلك ، وقد أكلنى فضول المعرفة ، من يكون هذا الرجل ؟ ! أخرجت الكيس من ثيابى وتحسسته ، فبدا لى وكأن بداخله رقاً ملفوفاً، توجست أكثر وأنا أتساءل عما يكون قد كتب عليه . بينما كنت على وشك الاقتراب من باب البيعة ، تذكرت فجأة من يمكن أن يكون صاحب الصوت ، وقفت متسمراً لحظات ، وقد ألجمتنى المفاجأة ، وشعرت بخطورة الأمر فى حال صدق حدسى .

قبل موت الأب توما بقليل ، جاء إلى البيعة أب رومى قابله عدد من آباء البيعة ، ومنهم الأب ميخائيل ، وقد كنت حاضراً وقت هذه المقابلة ، أصبّ شراب الخوخ للضيف الذى كان يتكلم العربية بلكنة غريبة ، وقد قال كلاماً كثيراً عن السارا سينيين ، وكان الأب توما يجادله راداً عليه وهو على حال شديد من الغضب والرفض لما يقول ، فلما انفض اللقاء ، وبقيت بعد ذلك فى المساء مع الأب توما ، سألته عن معنى الكلمة ، وكنت أسمعها لأول مرة ، فقال أنه يقصد الاسماعيليين أو المسلمين أبناء إسماعيل وهاجر ، المنحدرين عن النبى إبراهيم ، قال إن الرجل هو مبعوث البابا الرومى أربانوس الثانى ، وقد جاء بعد انعقاد مجمع فى مدينة ببلاد الغال تسمى كليرمونت ، بهدف حثّ أبناء يسوع فى بيعة القسيان على معاونة الكنيسة الرومية ، والعسكر الرومى المساند لها ، فى تخليص الأماكن المقدسة من أيدى هؤلاء الساراسينيين .

إذن . هو ذا ميخائيل يراسل هؤلاء مرة أخرى . يا الله . هتفت لنفسى وأنا أكاد لا أصدق بينما خطاى تتباطأ وأنا أهم بالاقتراب من باب البيعة ، وقد زايلنى كل خوف من الطريق ومخاطره ، وبدأ يداخلنى خوف من نوع آخر .

لقد قال الأب المرحوم توما وقتها ، إن ما يقوله ذلك الرجل ، ما هو إلا كلمة حق يراد بها باطل ، فهؤلاء الروم لا يبغون إلا مصالحهم ، ولا يعنيهم فى شىء الأماكن المسيحية المقدسة ، وأنه أى الأب توما ، ردّ عليه قائلاً : إن هذه الأماكن الطاهرة هى آمنة فى أيدى المسلمين ، وأن المسيحيين جميعاً يحجون إليها دون أية عقبات، ثم إن المسلمين هم عرب كسائر السريان ، وإن اختلفت ملّتهم ، وأن المسامحة ظلّت ديدنهم منذ أن تولوا أمور البلاد . أيقنت أننى هالك لا محالة طالما بقيت مع الأب ميخائيل ، فهذا الرجل فى حياتى فناؤه ، وفى فنائى حياته ، لذلك بقيت بعد عودتى إلى البيعة ساهراً لا يغمض لى جفن ، أقلّب الأمر على كل الوجوه ، وقد شعرت أننى كلما خرجت من نقرة ، وقعت فى حفرة ، فكنت أخاف أن أفضى لأى مخلوق بما فى داخلى ، حتى لا ينقلب الأمر ضدى ، وأنا هنا لا آمن أحداً ، بعد وفاة الأب توما الذى كان يحنو على ويعزنى كثيراً ، لكن فجأة ، هدانى الله لأن أبوح بأمرى للشماسة رصفة .

كان السماح للنساء بالشمسنة من أكثر الأمور التى استرعت انتباهي فى كنيسة أنطاكية ، وقد علمت أن ذلك من المعهود فى هذه الكنيسة ، منذ قرونها الأولى ، ووفقاً لرسالة بولس الرسول الأولى إلى تيموثاوس إذ قال : « لا تكتتب فى عداد الأرامل إلا التى لها ستون سنة ، على الأقل ، ولم تتزوج إلا مرّة واحدة ، ويشهد لها بالأعمال الصالحة بأن تكون قد

أحسنت تربية أولادها ، وأضافت الغرباء ، وغسلت أقدام القديسين ، وأمدت المتضايقين ، وسعت فى كل عمل صالح» ، وكانت رصفة ضمن هاتيك الشماسات المنوط بهن معاونة الكهنة فى تعميد النساء وتعليم الموعوظات ، ومراقبة النساء المؤمنات فى الغونايكيون ، وهو مدّ النساء أثناء القدّاس الإلهي ، وكذا تفقد المرضى والمصابين ، وكانت رصفة ، كما قالت لى مرة ، ضمن الذين شملهن قانون يوستنيانوس ، فرحمها الربّ وقبلت كشمّاسة وهى تحت الخمسين ، بعد التزامها كما نصّ القانون بالمحافظة على الآداب والوقار ، وهى المرأة المكلومة الثكلى ، بسبب فقدها أربعة من أبنائها دفعة واحدة ، بعد أن خرجوا للبحر للصيد والرزق فابتلعت المياه قاربهم ولفظهم الموج جثة إثر جثة ، وكانت رصفة تحنو علىّ كثيراً وكأنى ولد لها ، وذلك بعد أن أنقذتها يوم التعبد لتذكار القديسة بربارة السنوى فى الرابع من شهر كانون الأول ، وكان يوم سرور وفرح والناس فى غاية الغبطة والحبور ، وقد ارتدوا أفخر الحلل والثياب ، وكثر منهم من يعلو على المهارى والبغلات ثم كان أن توجهت الجموع مع الوالى والبطرك ورؤساء الدولة إلى هيكل القديسة كما جرت العادة وكنت أسير مع الهيئة الكنسية خلف الشماسات ، وفجأة اندفعت الناس إلى الكنيسة ، وراحوا يتسابقون ، إذ صاح من صاح أن أيقونة القديسة تذرف الدموع من عينيها ، فجرى الجميع محاولاً مشاهدة المعجزة ، والتيقن منها ، والتبرك بها وكل منهم يسعى للوصول قبل غيره ، فسقطت جماعة من الناس وكانت منهم الشماسة رصفة ، فلما شاهدت ذلك رفعتها بسرعة ، وحلت بينها وبين أقدام الناس المتدافعة والتى كان من الممكن أن تطأها وتدهسها .

ومنذ ذلك اليوم انعقـدت مودتنا ، وعرفت أنها طاهرة نقـية مؤمنة ، وكأنها قديسة بحق ، وباتت تفضى إلـى بالكثير من أحوال هذه الكنيسة ، وذلك بلسان عـربى بيّن ، فأبوها كـما قـالت لى من قبائـل يمانية الأصل تدعى الغساسنة ، أما أمها فهى من سـريان أنطاكية ، وهكذا استقر أمرى، ومضـيت إليـها طالبـاً منها النصح والمشـورة ، عند أول فرصـة واتتنى فى الصباح ، فذهبت إليها بحـجة أن ألماً فى رأسى وصداعاً أخذا يداهمانى ، وأريد منها شيئاً لتسكين ذلك ، وهذا مـا قلته للأب ميخائيل، وحكيت لها على وجـه السرعـة ما جـرى لى ليـلة الأمس فقـالت لى هامسـة ، وهى تتلفت يميناً وشمالاً :

- إياك أن تبـوح لأى مخلـوق بما قلته لى الآن . اسـمع . نهـايتك محتّمـة إن بقيت فى هذه البيعة ، فهو سـيتخلص منك إن عاجـلاً أو آجلا ، لم يبق لك غير أمر واحد هنا .

قلت بلهفة :

- وما هو يـا أمى المباركـة ؟ أعينينى وليـرحمك الرب فـقد أعـيانى التفكير .

ثم إنها همست بما لم يكن يخطر لى على بال .

بقيت طول النهار، أفكر فيما قالتـه لى الأم الشماسة رصفة ، وأقلبه على كل وجـه من الوجوه ، لكنى أيقنت فى الـنهـايـة أنه لا بديل لى إلا ما قالته، وهكذا ذهبت فى ظهيرة اليوم التالى إلى موضع الأب ديونيسيوس ، رئيس البـيعـة ، فلما مـثلت بين يديه بعـد أن ضربت مطانيـاً وأنا مطأطئ الرأس ، استجمعت كل ما بداخلى من شجاعة وقلت :

- أريد أن أعـترف لك ياسـيدى. لقـد كذبت وليـسامـحنى الرب ، وقلت إننى من أهل بيعة قصر الشمع فى مصـر العتيقة . هذا غير صحيح يا أبى ، فما أنا إلا فلاح فـقير من أهل البشمور بالأراضى الموحـلة .

ورحت أشمّـر عن ساعدى حـتى كشـفت عن وشم الأسد ، لأدعم قولى بأنى فلاح قرارى وعبد مسكين . ليصدقنى الرجل ويقنع بما أقول .

استمع إلىّ الأب ديونيسيـوس ، بروح هادئة كمن تعوّد على حدوث مثل هذا ، راح يفكر وقتاً مـتفرساً بوجهى ، وبعد قليل قال ببـرود مشيراً إلى قيّميه :

- خذوه إلى الحبس حتى ننظر فى أمره.

كان عليّ أن أدفع ثمن كذبي ألما ومراراً في سراديب حبس أنطاكية ، بعد ذلك ، ففي حبس كنيسة القسيان هذا ، لا يشتهي المرء إلا أمراً واحداً هو الموت ، فلقد كان محبسي ضيقاً ، بقدر ثلاث أذرع في ذراعين ، أشبه بجحر نحت في الصخر أسفل الأرض ، وهو لا يتسع إلا لبقاء المرء جالساً القرفصاء ، يتنفس بالكاد ، فإذا كان من المحظوظين المرضيّ عنهم ، يترك وحيداً دون إنسان آخر يشاركه الهواء ، الذي لا يدخل إلا عبر فتحات ضيقة متباعدة ، ويبقى الحراس بعيداً بعد إغلاق البوابة الحديدية للحبس ، عند مبتدأ الطريق المؤدية إليه ، والتي هي سرداب طويل مظلم وشديد الالتواء والضيق ، فلما أدخلوني إلى الموضع المتحفّظ عليّ به ، تركوا لي ماءً وإداما من الخبز الجاف والملح المخلوط بلب نوى المشمش المر ، وقد علمت بعد ذلك إنهم يضيفون ذلك إلى الملح درءً لداء الزرب ولزوم البقاء على قيد الحياة .

إن أسوأ ما مر بي خلال حياتي كلها - كان حبس بيعة القسيان هذا ، فهو الهول الحاضر ، والعذاب القاهر ، والإيذاء المريع للروح والجسد ، وكنت طوال فترة حبسي أدعو الله أن يساعدني على أمر واحد هو ألا أذهل أو أجن ، فالجنون لا بد وأن يكون مآل من يحبس في هذا المكان مدة تطول ، وكنت لذلك أحادث نفسي كثيراً ، وأقرأ قراءات إيمانية متنوعة ، وأستعيد مترنماً جانبا من الثاذوكيات الجليلة التي كنا نرددها في كنيستنا بقصر الشمع ، ثم إنني بدأت ألاعب نفسي ألعاباً ابتكرتها ، فأشكّل بأصابعي وكفيّ ، على الضوء الضعيف المنسكب من كوة السرداب ، حيوانات وطيوراً بأشكال طريفة أرى أشباحها على الحوائط الصخرية المحيطة بي ، كما رحت أستدعي مشاهد طفولتي البعيدة ومناظر بلدتي البشمورية ، خصوصاً ، عندما تبدأ شهور الصيف الحارة وتغلب مياه الفيضان العذبة

على مياه البحر المالحة فتـزخر الأنهر والقنوات بالأطيار والأسماك ، وسائر الكائنات الربانية من أهل هذه الميـاه، والمستوطنة فـيها منذ القديم ، فـيبدو المكان وكأنه فـردوس من الفراديس ، ونعـيم لا مثيل له فى الدنيـا ، وقد تفتح البسنت الأبيض ، وأظهـر نبات البشتين العوّام زهوره البنفـسجية فى كل مكان وبدا البـرديّ بسـيقـانه الطوال وزهوره الداكنة هنا وهناك ، فـلا تشـبع العين من نظر كل هـذا ، ولا تملّ الأذن كورس الأطـيـار وهو يرتل مزقزقاً ، صـادحًا ، مشقشقـًا ، شادياً بسـاحـر الأصوات وأبدعها ، كنت أغمض عينى ، وأطيـر بروحى بعيداً عن حبس أنطاكـية ، وأحط بها على أرض وطنى وبلدتى ، فـأدخل دروبها الضيـقة ، الحزينـة ، وأتشمم ثوب أمى ممسكاً به، وأنظر إلى أبـى وهو يبذر الحب فى الغـيطان ، وقـد شمّـر ساعديه عن قميصه الأبيض الكتانى ، ثم أنظر إلى إخوتى أجمعين ، ماريّة الكبرى التى ارتحلت مع نوتى ملكانى إلى بلاد الجريك ذات يوم ، ولم نعد نسمع عنهـا شيـئاً بعد ذلك حـتى أن أمى كانت تندبهـا ندب الأموات منذ ذلك الحين ، ثم أختى الصغرى بسنت التى كـانت الأقرب إلى مهجتى من كل إخوتى ، ولا أشتاق لأى منهـم ، مهما حييت ، قدر اشـتياقي لها ، وهى التى كانت تصغـرنى بثلاثة أعـوام ، ولها من الجمال والحنان ، ما لا يوصف وما لا تنساه الروح ، وقد انطبعت صـورتها الأخـيرة فـى مخيلتى وقت عَـدَم آمونة ، إذ بدت كالمصعوقـة ، صامتـة لا تنطق، وقد جحظت عيناها كحـبتى عنبر كبيرتين، تصلدتا بفـعل المفاجأة والأسى ، هكذا كنت أبقى وقتـاً طويلاً مستعـيداً بمخيلتى كل المناظر والحيـاة التى كانت وعشـتها ذات يوم هناك ، فأحزن حيناً ، وتنتعش روحى بهـا حيناً ، فأهفو أن تعود عجلة الزمان إلى الوراء ، وتأخذنى بدولابها إلى مـا تبتغيه روحى وترّق به مشاعرى ، وكنت أفرح حيناً آخر ، عندمـا أتذكّر أن الحياة بها من مسرّات

الربّ وخلقه ما يرتفع بالعبد إلى السمو والصفاء، فأشكره على ما جاد به على عبيده ، وتنتعش روحى بالأمل ، فأفتح عينى لأواجه جدران الحبس الحجرية أمامى دون أن أخشاها ، وأجدد قراءاتى الإيمانية مرة أخرى أو أصلّى صلوات الشكر والحمد ، وأكثر من طلب المغفرة لكل الذين عرفتهم وماتوا ، وكل الذين أحببتهم وصعدوا إلى ملكوت السماء ، وكنت كثيراً ما أردد بعضاً من المزامير الداودية ، التى أحفظها عن ظهر قلب، حتى تتقوى نفسى ويثبت إيمانى ولن أنسى كم رددت :

إنى ولو سرت فى وادى الظلمات لا أخاف سوءً لأنك معى

عصاك وعكازك يسكنان روعى

تُعِدُّ مائدة أمامى تجاه مضايقى

وبالزيت تطيب رأسى فتفيض كأسى.

ثم إننى كنت أحاول صرع الوقت ، فأحاول تذكر ما فى نواحينا البشمورية من أسماك وأطيار ، وأعدد أسماءها واحداً واحداً ، محاولاً استدعاء أشكالها وأجسامها ، فعددت من الطيور، السلوى ، النصطفير ، الزرزور ، الباز الرومى، الصفرى ، الدبسى، البلبل ، السقاء ، القمرى ، الفاخت ، النواج، الزريق ، الهونى ، الزاغ ، الهدهد ، الحسينى ، الجرادى ، الأبلق ، الراهب ، الحساف ، البرين ، السلسلة ، درداری ، الشماس ، البصبص ، الأخضر ، أبو الحفاء ، الدورى ، الزنجى ، الأطروش ، ابن السمان ، ابن المرعة ، الوطواط ، الملاعقى ؛ وفى ليلة عددت من أنواع الطير التى أعرفها ما يربو عن المائة ونوعين بين صارخ وشاد ، ونائح ، وهادل ، ومغرد ، وزاعق ، وناعق ، ومزقزق ، ومشقشق ، ومصفر ، ومصوصو ، أما الأسماك فقد واسيت نفسى بها

ذات مرة حتى عددت منها تسعة وسبعين نوعاً كانت البورى ، البلمو ، البرو ، اللبت ، البلس ، السكسا ، الأران ، الشموس ، النسا ، الطوبار ، اليقشمار ، الأحناش ، الانكليس ، المعية ، البنى ، الأبلبل ، الفويص ، الدونيس ، المرتنوس ، الاسقلموس، النفط ، الجبال ، البلطى ، الحجف ، القلارية ، الرخص ، العبر ، التون ، اللت ، القجاج ، القروص ، الكليس ، الأكلس ، الفراخ ، القرقاح، الزلنيخ ، اللاج، الأكلت، الماضى ، الجلاء ، السلاء ، البرقش، الصد ، البلك ، المشط ، القفا ، السور ، حوت ، الحجر ، البشين ، الشربوت ، النساس ، الرعاد ، الشعور ، المحبرة ، اللبس ، السطور ، الراسى ، الريفن ، اللبيس ، الأبرميس ، الأبونس ، اللباء ، العميان ، المناقير، القلميدس ، الحلبوة ، الرقاص ،القرندس ، الجتر ، هوكبارة، القبج، المجذع الدليسى، الاحشبالة، البسال الأبيض ، الرقوق ، أم عبيد ، البلو، أم الإنسان ، الإنسارية ، اللجاه . وبقيت على هذى الحالة لا أدرى كم مرّ علىَ من الوقت ، ولم أكن أعرف مبتدأ الليل من مبتدأ النهار ، إذ كنت أبيت علىّ ما أصبح عليه ، وقد اتصل زمانى ، ولم يعد لى من الإمكان مفارقة مكانى ، فصرت كالعائش الميت ، أو الميت الموجود الذى لا يحق له فعل الوجود ، وصرت أغيب فى نوبات لا أدرى أهى حمّى أم نوم ، فلا أصحو إلا لشرب جرعة ماء ، أو لأزدراد كسرة أدم ، ثم أنه حدث ذات صباح أن جاءنى الحراس ، وأخرجونى ، فسرت بصعوبة أمامهم ، بينما هم يدفعوننى دفعاً ، وكان امتناعى عن الحركة والسير مدّة قد يبّس أوصالى ، وبت كالمفلوج العاجز ، وكان حرمانى من النور والشمس ، كل هذا الوقت ، قد جعل عينى لا تقويان على مواجهة سطوعها وإبهارها، حينما صرت فى فناء البيعة عابراً بينهم إلى موضع الحمّام، فتركونى حيناً لأتحمم ،

وليسامح الله الأب ديونيسوس ، إذ كـانت رائحتى نتنة عفنة لكثرة مكوثى دون تطهّر أو نظافة .

استقرّ الأمر على ترحيلى إلى بلد الخلافة بغداد ، فأنا أسير الخليفة ، وطالما أنا لست من أهل البيع كمـا ظن الجميع هنا فى بيعة القسـيان ، فقد كان عليهم تسليمى مرة أخرى إلى عسكر الخليفة حتى أكون ببغداد ويجرى التصرف بى كما يشاؤون هناك .

سلّمت أمرى إلى الله ، فمـهما كان ما سـيكون لن يكون كما الذى كان ، وما سوف يمرّ لن يعادل ما مرّ ، وهكـذا وجدتنى أغادر فى صبيحة اليوم التالى بيعة القسيـان ، التى رأيت فيها ما لم أره من قبل، وذلك بعد أن لملمت حاجياتى القليلة من ملبس وأشياء لا أهمية لها إلا لكونها أشيائى .

خرجت عند الغروب مغادراً أنطاكيـة، وكان آخر عهدى بها وقت أن حكموا على شماسة شابة بالبيعة تسمى برسيس ، أجحفت بالنذر ، وحادت عن السـيرة الحـسنة ، وضبطت بجـريمة الزنا مع رجل شمّـاع ممن يزودون الكنيسة بالشمع ؛ كنت ضـمن جماعة من الناس فى حراسة غيـر كبيرة ، وقـد وجهـوا بنا إلى بلدة أخـرى من البلاد الشـامـية المؤدية إلى بغـداد ، وتسمـى هذه البلدة حلب ، فقطعنا المسـافة إليـها فى يوم وليلـة ، وكانت الطريق بين الكورتين عامرة لا خراب فيها ، ومزروع جُلُّها بأنواع عـدّة من الخيرات والزروع والغلة ، وكنا نبقى وقتـاً فى بعض القرى التى تعترضنا ، وهى فى جملتهـا ذات رياض مزهرة ومياه متفـجرة ، فيتركونا لنأكل شـيئاً ويطعموا الخيول ويسقونـها ، وقد حدث أننا كنا قد جلسنا على طرف فلثر من الأرض لنسـتريح ، وهو مـا يحاكى الفـدان والجريب ومـا إلى ذلكَ، فخـرج إلينا بعض الفلاحين مسرعين ، فلمـا شاهدونا وتعرفوا على عسكر الخليفة ، نصحوهم بالمضّى سريعاً ، لأن هذا الموضع قريب من جبال يقال لها اللكام ، وأن بها حصنًا قديمًا يشرف على بحيرة يتخذه جماعة من الروم مقراً لهم ، وهم قوم حبسوا أنفسهم على قتال المسلمين ومنعوا أنفسهم عن النكاح فهم بـين الرهبان والفرسـان ، فسارع العـسكر بجمعـنا ، ونهضنا لنعاود المسير مرة أخرى إلى مدينة حلب .

دخلنا حلب وهى مـدينة مسّـورة بسور عظيـم من الحجـر الأسود ، والقلعة عليـه ، وذلك من باب أنطاكية ، وكـان لحلب خندق عظيم وصل حفره إلى الماء ، وفى وسطه مصانع للمـاء المعين .

كان بعض العسكـر قد تركونا وذهبوا لشحنة المدينـة لتسلم الخارجين عن الخليفة ، وفى هذه الأثناء جاء من قال إن تنيناً قد ظهر ، منذ فترة بالمدينة ، بغلظ منارة وطول مـفـرط ينسـاب على الأرض يبلع كل حـيوان يجـده ، ويخرج من فمه نـاراً تحرق ما تلقاه مـن شجر أو نبات ، وإنه اجتاز على بيوت أحرقها ، والناس يهربون منه يميناً ويساراً حتى انسـاب قدر إثنى عشر فرسخاً فأغاث الله تعالى الخـلق منه بسحابة نشأت ونزلت عليه فاحـتملته ، وكان قد لفّ ذنبه حول كلب ، ورفعـه ، والكلب يعوى ، فى الهواء والسحاب ، يمشى به والناس ينظرون إليه ، إلى أن غاب عن الأعـين، وقد قال الحاكى الذى حكى هذه الحكاية : رأيت الموضع الذى انساب فيه كأنه نهر .

فلما عـاد العسكر إلينا ، كان مـعهم جمـاعة من الناس المرحّلين إلى مقر الخلافة مثلى ، وذلك بسـبب أن والى المدينة قـد أمر بإقصائهم عنها ، لأن بعضهم وهم من قـرية تسمى هوته ، قد اقتتلوا مع جمـاعة أخرى من قرية تسمى عين الجـارة وكان بين القريتين حجر قائم كالتخم ، فما كان من أهل هوته إلا أن أوقـعوا الحـجـر وطرحوه ، فـخـرجت نساء عين جـارة أجمعين متبرجات ، ظاهرات ، لا يعـقلن على أنفسهن طالبات الفجور ، لا يستقبحن فى الحال ما هن عليـه من غلبة الشهوة ، إلى أن يتبادر الرجال إلى الحجـر فيعيـدونه إلى حالته الأولى فيـتراجعن إلى بيوتهن ، وقـد عاد إليهن التـمييز لقبـيح ما كنّ عليه من التبـرج، فأمر الوالى بإقصـاء الحجر والقبض على بعض من أهل هوته لأنهم لصوص، وكانوا كثيراً ما يُسخّرون الحجر لصالحهم ويلحقون العار بأهل عين جارة ، وأن الوالى قد طلب من الخليفة ألا يسمح لهم أن يعودوا إلى مواضعهم أبداً .

ثم إننا تخللنا المدينة متجهين إلى باب العـراق ، فوجدت أن بها نهراً يقال له قويق ، فلمـا مررنا بجانبه وقفنا قليـلاً لأن واحداً من العسكر أراد إحضار سلحفاة من السلاحف ، التى تكثر به ، وذلك للحصول على دمها

لأمه فى العراق ، وقد قيل له أن التطلخ به ينفع من وجع المفاصل . فلما تريثنا إذ بصوت عذب لصياد ، يأتى من الناحية الأخرى للنهر، يتصاعد وهو يشدو :

فلو دام الحب الوصال ولم يكن فراق ولا هجر لما اشتاق

قويق سيل الغيث يأتى وينقضى ويأتى انسياقاً تارة ثم ينساق

وقد لاحظتُ الناس فى الطرقات، والذين كانوا يتوقفون قليلاً لينظرونا، فوجدت أنهم من أحسن الناس وجوهاً ، وأجساما، والأغلب على ألوانهم الدرية ، والحمرة ، والسمرة ، وعيونهم سود . وقد عجبت من كثرة حارات المدينة ، ودورها، وجناينها ، وحماماتها ، وكذا رصانة البناء فيها ، وحسن حجارتها ، وتعدد أسواقها ، والمعروض فيها من الخضر ، والفاكهة ، والزيت ، والصابون ، والأقمشة ، وأنواع الفرا التى تعلق للعرض على أبواب الدكاكين وهى على هيئة حيواناتها كالسمور ، والوشق ، والفنك ، والسنجاب ، والثعلب ، وسائر الوبر ، أما سوق الرقيق ، الذى مررنا به كذلك فقد رأيت فيه أصنافاً من الجركس ، والترك ، والروم ، والحبش ، ثم إننا أُخرجنا من باب العراق قاصدين مدينة الخلافة بغداد .

كنت خلال الطريق لا ينقطع ذهنى عن التفكير والتأمل ، فأدركت أن السفر هو المسافة بين هنا وهناك ، أو هو هنا التى ما أن تقبض عليها ، حتى تفر منك إلى هناك ، فأنت فى برزخ مستديم ، يستقدم التاريخ وينبذ الخرائط ، لتهيم الروح فى ماضيها وما كان ، وتقبض على الكون فى سياحات فريدة من التأمل والاستشفاف ، وهكذا صرت ، طوال الطريق ، كلما خلوت إلى نفسى - أفكر فيما كان من أمرى ببر مصر و أنطاكية -

وأضعه تحت نور الشهاب الثـاقب ، ونجم التأمل الساطع فأتوصل بعد لأى من الـهجس والتمحيص إلى أن ما كنت اعتقده يقينا ، ما هو إلا ضرب من شك لا يشبع سـريرة ، وأن البداهات إنما هى بمثابة بدايات ، وأن العـقيدة الحـقة لا تتـجلى وتكون إلا بالفـعل المفعـول ، دون الكلمات ومـعسـول الترهات ، وأن هناك من يتـخذها مطية ورهـينة ، ليتمكن من أمـور الدنيا وشهواتهـا ، وليس كل من تلا كلمات الرب عامل بهـا ، فهناك من يرتل الكلمات المقـدسة ، بينمـا هو يتلتل الدنانير المدنسـة ، وإنما القول الإيمانى يجب اقترانه بالفعل الإنسانى ، وإلا كان غـشاً وبهتاناً وتزويراً وإعمالاً فى خداع الناس والهيمنة عليهم بالآيات المُصدقة والطقوس المكرسة .

لقد كـفرت - وليـرحمنى الرب - خلال ولوجـى فى برزخ السؤال، بأمر مـا ، وتشككت فيـما كنت أظن أنه لا يشك فـيه أبداً . وبت أطرح علامات استفهـام، لا أدرى أهى من نتاج تعاظم شعورى بالألم والبؤس ، وقلة حيلـتى ، ومشقـة السفـر ، أم هى من قبيل الجـود الربانى والكشف الجوانى ، وكان إلحاحى الدائم على : هل يحـتاج خالق القَطر ، والشجر ، والسحـاب ، والثمـر ، وصنوف الطير ، والحـيوان ، وسـائر أجناس بنى الإنسـان ، وما علـى البر ، وداخل جـوف البـحر إلى كـل هذه التوافـه العوارض من التـيجان والطيـلسانات والمذهبات المفـضضات ، والعـمارات ليـدلل على قدرته ؟. إن أى جـبل قد خلقـه - مما خلق - لا تضـارعه ، مهمـا كانت عظمتها ، بناية من الأبـنية أو عمارة بيعـة من البيع . فالرب جليل مرتفع عن كل هذا فى أعماله وآيات قوته وأفضاله ، وهو العزيز عن مصنوع موضوع بيد عَبد من عباده .

حَمَار وصَفَار وخَضَـار وسَوَاد من الأرض ، قُدّر لى اجتيازه مع تلال من الدهشة والعجب وأنا أعبر القـرى ، والبلاد، والصحراوات مرتحلاً فى الطريق إلى المدينة المدورة المسماة بغـداد . إنها المدينة التى ظلت تتراءى فى

خاطرى كحلم شُيد من ضبابات التخيل وتهويمات التكهن ، وقد رسمتُها بمخيلتى من فسيفساء الأماكن وتفاصيل العوالم التى شهدتها وخبرتها ، ورغم مشقة الترحال والسفر ، وعبودية الأسر ومرارته ، فإن تشوقى لبغداد كان يتزايد كلما غذينا المسير وقطعنا الطريق بعد الطريق، فما أجمل أن تشتهى رؤية مدينة ، وتحلم بأنك سوف تعاينها معاينة البصر وتلجها ولوجاً بالقدم ، بعد أن شيّدتها بداخلك لبنة لبنة من أوهامك عن المدن والبلدان فى العالم المضطرم والمتمور بالقسوة والعنف والصراع دوماً .

كانت قد مرت علينا فى الطريق أحداث كثر ، لكنها تضاءلت وتصاغرت جميعها إلى جانب ما رأينا عند مرورنا بصحراء من الصحراوات المحيطة ببعض القرى والتى يتوجب على التجار وقوافلهم اجتيازها خروجا أو دخولاً إلى بغداد ، فقد تصاعدت إلى أنفى وأنوف كل الذين كنت معهم ريح نتن وجيف ، فظننا أنها من بقايا فريسة لوحش من الوحوش ، وقد تعفنت وتجيفت بفعل سخونة الشمس وشدّة حرارتها ، لكن ، وبينما نحن نتأفف ونشمئز من ذلك ، إذ بنا نسمع أنينا موجعاً يمزق وقعه القلوب ، فبادرنا إلى موضعه ، فهالنا ما رأته عيوننا ، كان على الأرض رجل موثق يتأوه من فرط آلامه ، جاحظ العينين وقد خرج لسانه مورماً مقدداً مسوداً من فمه، بينما آلاف الديدان تسعى مسربلة جسده وكأنها ثوب يغطيه، فلما تشجع بعضنا ، واقترب أكثر وجد أن الرجل مكفّن فى ليّة الخراف ، ومربوط عليه باللبد والحبل بإحكام، ويبدو أنه ملقى منذ زمن فى الشمس الحامية ، فاستحالت اللية ، بعد حين ، إلى ديدان أخذت تلتهم جسم ذلك التعس بينما هو على قيد الحياة ، وقد حكى لنا واحد من الحراس ذلك ، فلم أتمالك نفسى ورحت أفرغ ما بجوفى وأنتحب انتحاباً شديداً ، وقد أصابتنى نوبة من الألم ، لم أعد قادراً معها على الإتيان بأى فعل أو حركة ، خصوصاً وأن بعض الحراس سارع ليفكّ الرجل من أسره ، لكن

مُقـدّم الحرس منعه ، لأنه لم يـعد منه رجاء، فـقد أصاب الدود أكـثر من موضع فى لحمه ، وصار موشكاً على التلف والفناء، وخشى أن يصيبنا منه مرض أو آفة إن اقتربنا منه أكثر أو حاولنـا مساعدته ، ومضى بنا مسرعاً ، تاركين المسكين لمصيره المؤلم . فلما اجتزنا فرسخاً أو فرسخين وجدنا بعض الناس فراحوا يسألوننا عن موضع رجل مقـيد ومتروك فى الصحراء ، قالوا أنهم يبحثـون عنه منذ عدة أيام دون جدوى ، فأرشدهم مـقدّم الحرس إلى موضـعه الذى كنا توقفنا عـنده ، وسألهم عمـا كان من أمره ، فـقالوا إنه تاجر من التجار ، قيل أنه خان بعضـا ممن كانوا معه بالقافلة ، وسرقهم ، فعاقبوه بعقاب قوم يقـال لهم الإيلخانيين ، وهم من القساة الغلاظ المتفننين فى تعذيب أعـدائهم وضحـاياهم ، ففعل التـجار بالرجل مـا يفعله هؤلاء الإيلخانيين بأعـدائهم ، وزاد هـؤلاء بأن شطروا صبيـاً كان للسـارق ، إلى نصـفين ، من باب الانتقـام والتشـفّى ، ودون أن تأخذهم رحـمة أو شفقة به .

كان ذلك الأمر ، قد أصابنى طوال المسافـة المتبقية من الطريق ، بحد من التبلد وفقدان الشعـور ، وقد بهت لكل هذه القسوة ، ولكل هذا القدر من العنف وشهوة الانتـقام ، وفى لحظة تمنيت الموت ، وبدا لى أنه الواحة الممكنة الوحـيدة ، بعد تيـهى الممتـد فى بيداء هذه الدنيـا المقفـرة ، وكان شعورى بذلك يتـماسك ويتكثف ، كلما حثـونا على الإسراع والنشاط فى السير حتى نجتاز المسافة إلى مدينة الخلافة فى أقل وقت ممكن .

ثم إنه لاحت لنا بعـد زمن قباب وأبنيـة ، كأنما صبّـت فـى قالب ، وكأنما أفرغت إفراغاً ، وكان بعض العسكر قد أخذ يطلق صيحات الفرح ، ويلغط بسعادة عن وصولنا واقتراب بلـوغنا أبواب المدينة المقببة وقد ظهرت بين قبابها قبة عظيمة خضراء اللون ، عليها صنم على صورة فارس فى يده رمح نبهنى إليه قول واحد من العسكر ونحن نتقدم بالمسير إذ قال :

- انظروا. رمح الفارس يتجه نحو الشـرق. لعل الخوارج سيخرجون من هذه الناحية ، كما يقال؛ ضحك آخر بسخرية وعلّق :

- أتصدق هذه التـرهات ؟ إنها خرافـة ولا أكثر ، أن يخـرج خارج على الخليـفـة من جهـة الرمح ؛ سـر وأنت سـاكت ، خلنا نصل وننهى مهمتنا بسلام .

بدا لى سور المدينة ، وقد اقتربنا عـظيماً ممتداً على نحو لم أره ، ولم أعهده ، فى أية مدينة أخرى كنت قد شـاهدتها من قبل ، سواء فى بر مصر أو فى بلاد غـربتى ، وكـان السور مـدوراً يحـيط بالمدينة داير مـا يدور ، وبالتخمين فإن ارتفاعه ، إلى السماء ، قد يزيد عن خمسة وثلاثين ذراعاً ، وبدت لى أبراجه بسمك قد يكون خمسة أذرع ، وكانت على السور شرف ، فلما اقـتربنا من ذلك السور اقـتراب المعاينة والتـدقيق استـبانت لى أبواب عديدة فيه ، ثم إنهم أوقفـونا عند باب قيل له باب الشام الأول ، فوجدت أن للبـاب هذا بابين بينهمـا دهليـز ورحبـة يؤديان إلى الفيـصل الدائر بين السـورين ، وبدا لى أن الأول باب الفيـصل ، والثانى باب المدينة ، فلـما ولجناه بعد إذن الحـراس إلى دهليز أزجّ مـعقود بالآجـر والجص ، وجدت على الأزج مجـلساً له درجة على السـور ، يرتقى منها إليـه ، وعلى هذا المجلس قبـة عظيمة ذاهبـة فى السـماء ، سمكهـا ، قد يكون ، خمـسون ذراعاً وهى مزخرفة ، وكانت هناك قباب أخرى على السور ، وهى التى كانت قد استـبـانت لنا من بعد قـبل ولوجنا إلى المدينة ؛ ثم إنهم سـاقونا عـبر شوارع المدينة إلى قصر الخليفة ، فهالنى وأخذت بما وجدت عليه العامة فى الأسـواق والشوارع وأسطح المنـازل ، فوقف العـسكر الذين جلبـونى مع بعض الأسرى الآخريـن يتساءلون ، وقد أخذوا بما أخـذت به من ازدحام الناس حـتى فـى الدكاكين والشـرف ، فقـيل لهم إن الخليفـة أذن بدخـول رسول الروم ، وإن الجميع ينتظرون وقت مرور موكـبه قادماً من دار يقال لها

دار صاعد ، وقــد مكث بها شهرين لا يؤذن له بالمثــول بين يدى الخليفة ، وقال من أخــبر العسكر بذلك إن كل صاحب دكــان أو غُرفة مُشـرفة على مشهــد خروج رسول الروم إلى قصـر الخليفة ، قد أكــرى ما لديه بدراهم كثيرة ، وإن الشذاءات والطيــارات والزلالات والسميريات فى دجلة صارت بأفضل زينة وأفضل ترتيب وتعبئة .

ثم إنهم ساروا بنا ، فـعبرنا أسواقــاً وحمامات وأرباضاً عـديدة حتى أوصلونا إلى قصر الخليـفة الملاصق لجامع جمـيل ، وقبل أن يدخلونا جاء رئيس ، قد يكون مـقدّم الدرك ، وظل يجــادلهم فى شأنى ، مثلمــا كان يحدث دائماً فى كل مرة يجـرى تسليمى فيها ، ثم أنه وبعد كــلام كثير ، استقر الأمر على وضعى فى الوقايد بمطبخ الخليفة .

لا أدرى أكنت محظوظاً لأننـى وصلت إلى قصر الخليـفة فى الوقت الذى كان فـيه الجميع مشـغولين باستـقبال رسول صاحب الـروم ، فقرروا سريعـاً إلحاقي بالوقايد ، فلم أُبع ، أو أُوضع فى حبس مـن الحبوس ، أم أن ذلك كـان بسبب درايتى بالوقـايد من قبل أثناء ترحـيلى من مصـر إلى أنطاكية ، فى الحراقة ، وعدم انتفاعهم بى على أى وجه من الوجوه إذا هم باعونى ، وذلك بسبب ضعف بنيتى واعـتلال صحتى ؛ على أية حال لقد قدر الله لى أمراً كـان مكتوباً ، فقد عـبروا بى ساحة القصـر ، بينما كان الجميع منـهمكا بفرش المكان بالفروش الجـميلة، وتزيينه بالآلات الجليلة ، وكان الحـجّاب ، ومن خلفهم ، والحـواشى آخذين بالانتظام فى طبـقاتهم على الأبواب ، والدهاليـز، والممـرات ، والمخـتـرقات ، والصـحـون ، والمجالس ، ويقى الجند واقـفين صفين بالثـياب الحسنة ، وتحـتهم الدواب بمراكب الذهب ، والفضة ، وبين أيديهم الجنائب ، على مثل هذه الصورة ، وقد أظهروا العدد المكسية والأسلحة المختلفة ، وبعدهم الغُلمان الحجرية ، والخدم الخواص الداريّة والبرانيّة بالبزّة الرائعة والسيوف ، والمناطق المُحلاة .

ثم إنهم أدخلونى بصحبة واحد من العسكر من باب قصّى فى الساحة يفضى إلى مطبخ الخليفـة ، ومهما وصفت فلسوف أظل مقـصّراً ، عاجزاً عن وصف ما رأيت ، إذ أنـنى ، بمجرد أن تخطيت هذا البـاب ، وجدت نفسى فى فناء واسع ، محاط داير مـا يدور بغرف كثيرة فيه عـدد كبير من فراخ الطاووس ، والبط ، والإوز ، والديوك الرومية تجرى هنا وهناك، ثم إننا دخلنا إحدى هذه الغرف فوجدت أنها كبـيرة واسعة ، تفضى إلى غرفة أخرى ، استبان من بابهـا أكداس من خشب وفحم حملت وتراصت على بعضها البعض بترتيب ونظام، أما الغرفة الأولى فكانت غرفة الأفران، وقد توضّعت فيها مجموعة من بيوت النار إلى جوار بعضها، فلما عددتها وجدت أنها عشرة ، وكـان عليها رجال وغلمان يعملون بهمـة ونشاط ، والسخام

يغطى حيطانها العالية ويحيل لونها إلى السواد، ثم إن الجندى الذى أنا تبعيته نادى على رجل ناعتاً إياه بالريس حسين، وسرعان ما جاء رجل ضخم الجثة ، فى عينيه حدّة وقوة تأخذ النفس، وتسيطر عليها، وحيّا رئيس العسكر، فقال له :

- هذا أسير الخليفة ، هو قبطى مصرى ، ستكون ملتزماً به منذ الآن فصاعداً ، ولسوف يكون تحت أمرتك فى الوقايد ، وكل ما يخصه ستُسأل عنه على أية حال .

ردّ الريس حسين بهدوء :

- أمرك يا سيدى .

ثم إنه اصطحبنى إلى موضع بغرفة الحطب والفحم ، فأدركت أنها واسعة ، أقرب إلى الخان الواسع منها إلى الغرفة المحدودة ، وقال :

- سوف يكون مستقرك ومنامك هنا، عندما تنتهى نوبة عملك كل يوم ، ستعمل معى فى البداية خلال نوبة الليل ، ثم تنام سويعات بعد طلوع الفجر تبدأ بعدها فى التهيؤ حتى وقت الغروب ، وإياك ومخالفتى فى أمر من الأمور . هلاّ قلت لى ما اسمك ؟ .

قلت وأنا أزدرد ريقى ، بينما مرارة تتصاعد إلى حلقى :

- بدير . بدير يا سيدى .

وبينما كنت أردّ عليه إذ دخل علينا واحد من خدام القصر وصرخ :

- هيا يا حسين ، هات مجامر البخور ، وتعال لتشرف عليها بنفسك ، ستبقى حاملاً المجمرة الكبيرة أثناء طواف رسول الروم بالقصر ، اغتسل سريعًا وهاك بزّة جديدة لترتديها .

- نعم . نعم . فى غمضة عين إنشاء الله سأكون جاهزاً .

لو سئلت ذات يوم عمّن أمتنّ له فى هذه الدنيـا بعد الله العلى القدير ، لقلت وكلّى يقين ، حـبيـبى وقـرّة عينى ثاونا أولاً ، ثم سـيّدى صـاحب الفضل الذى لا أنكره أبداً مهما حـييت ، الحسين بن فالح المراغى ، الذى وفد إلى بغداد من بلدة من أعمال الخـلافة تدعى مـراغة ، فثاونا هو الذى عطف على نفسى بالمودة والرحمة ، وأرشدنى إلى كثير مما كنت أجهله قبل ذلك ، وكان لى بمثابة الأب والأهل ، والنديم والصـديق ، والمعين الصبور على عذابات روحى وأوقات يأسى وقنوطى ، ثم هو الذى ثبّت نفسى على الإيمان ، وأمدنى بكل محبة وحنو ؛ أما الحسين بن فالح المراغى ، فامتنانى له هو امتنان الغارق فى جبّ عميق لمن أخرجه إلى الحياة مرة أخرى ، وهو ذاك الذى ساعـدنى على البـصر بعد عَـمى ، وعلى النطق بعـد خرس ، وعلى السمع بعد صمم .

كنت كلما عقدت أوجهاً للشبـه والخلاف بينهما ، أتعجب من نفسى ، فما يجمعـهما قليل نادر ، وما يباعد بينهما كـثير فادح ، لكنى كنت أدرك فى النهاية أن لديـهما الجـوهر ذاته وإن كان قد تموّه واخـتفى بالخارجـيات الشكلانيـات ، وكـنت أدرك أن هذا الجوهـر هو الذى جذبـنى إليهـمـا ، وعلقنى بهما تعلّق النجوم بالسماوات ، فـالرجلان بداخلهما ما يسمو على هذى الحياة ، فـهما فيـها وليسا فـيها ، وهما العـائفان كل ظاهر بارق ، المهمومان بكل ما هو داخل باطن ، بل والمدركان لعبث الدنيا ولهو الوجود ، فلا يهتمان لعبوسه أو يغـتران بسطوة عروشه ، وهما فى بعض من هيئات الزمن الشاغلة ، فهذا فى بيعة وكنيـسة ، وهذا فى قصر الخليفة ، لكن لا هذا ولا ذاك يتكالب أو يصطرع علـى ما يتكالب ويصطرع عـليه العـاملون فى مثل هذى الهيئات .

كان معاشنا ومبيتنـا نحن الفحامين والوقادين فى خزانة الحطب والفحم ، وكان عملنا أمام بيوت الـنار والمواقد لا ينقطع ، لأن العمل بالمطعم لا يتوقف

أثناء النهار أو الليل وإعداد الطعوم العـذبة ، والمالحة ، والدسمة ، والحلوة ، والحامـضة ، والمـرة ، والقابضـة ، والحريفة لا يتـوقف أبداً ، وكان جل العاملين فى الوقايد ، إمـا من الأسرى الذين لا رجاء فيهم ببيـع أو متعة مـثلى ، أو من أولئك الذيـن حُكم عليـهم ، لأمـر من الأمـور ، لأزمنة طويلة ، فكان العمل فى الوقايد هو قضاء لعقـوبتهم ، ويستفاد به للصرف على قوتهم بتشغيل طاقة جسومهم .

أما الحسين بن فالح فقد ساقـه قدره للعمل فى الوقايد ، فهو لـم يكن أسيراً ، ولا مـذنباً مثل الباقين ، لكنه نشأ وتربى فـى مطبخ الخليفة ، ولم يكن يعرف له فى الدنيا بيـتاً أو وطنا غيره ، فلقد تربّى وعـاش جُل عمره فى هذا الموضع ، ويقال إنـه لم يعرف له أباً أبداً ، جاءت أمـه نازحة من بلدتها البـعيدة إلى مدينة الخـلافة ومعهـا الحسين طفلاً رضيـعاً ، ثم ظلت تقتـات زمناً من بيع خبـز التنور فى أسواق المدينة ، فـاشتهـرت بصنعتـها وإجـادتها له ، حتى لقـبت بين العـوام بست التنور ، فلمـا ذاع صيـتهـا جلبوها للعـمل فى مطبخ الخليفة ، وقـيل إن والد الخليفة الحـالى صار لا يأكل خبزاً إلا من عمل يديهـا ، وأنها كانت تصنع له كل يوم ما يزيد عن مدّين من القمح ، وهو يُعدّ من الشيء الكثير .

وهكذا تربى الحـسين طفـلاً يـجرى ويـلعب بين أقـدام الطبـاخين ، والوقادين ، وكافة العاملين فى المطبخ من خـدم وعبيد، وظل هانئ العيش حتى وافى الأجل أمه ، ذات يوم ، فتيتم بعد أن ماتت بعلّة الفواق ، وكانت هذه العلة قد استشرت وتمادت تمادياً كـبيراً فى الناس خلال سنة من السنين ، وراح ضحيتها خلق كثـير لا يُحصى عددهم ، فلما راحت ، أشفق الناس ممن يعملون معها فى المطبخ عليه ، واستـبقوه بينهم ، وصيروه وكأنه واحد من عيالهم ، فتعهدوه بالرعـاية والربابة حتى شبّ ، فعمل فى الوقايد من يومه ، وقد كـان مولعاً لأمر لا يعـرفه أحد بالنظر إلى الـنار واللعب بها ، ثم إنه

حذق فى هذا الكار ، حتى صار المعلم الأكبر المختص فيه ، وكنت أتعجب فى بداية الأمر من نعت الحسين بالمعلم ، وأظن أن ذلك ضرب من ضروب التهـويل والمبالغـة ، لكنى ، وبمرور الوقت ، بعد أن خـبرت عـمل وقايد الطبخ ، أدركت أنه يحـتـاج إلى مـهـارة ، وشطارة ، وحسّ ، وذوق ، وعلوّ فى موهبـة التمـييز ، والتـقدير ، والموايمة، والتـخمين ، وذلك فى اختبـار درجة النار ، وشدة اللهب ، ومناسبتـها لكل نوع من أنواع المأكول والمطبوخ ، فالساذج منهـا قد يفسد نوعاً من الطبيخ وقد يحسـن غيره فما يناسب الخشكنانج المصنوع من دقيق السميذ والسكر واللوز المقشر المطحون ، المبثـوث بالكافور وماء الورد قـد لا يناسب الأسفيـذباجة الخضـراء ، وما يستلزم السفديـة قد لا ينفع الفـالوذج ، وكان تنوع الطعوم وتعددها يحتاج إلى تنبه وتيقظ بالغين من العـامل فى الوقايد ، فكل يوم كانت ترد للطهى أصنـاف غيـر التى كانت فى اليوم الذى قبلـه ، وقـد حدث أن عددت القدور الكبار الـتى حوت السكباجات ، والحنطيات ، والـسلاقات فكانت أكثر من عشرين قدراً من الفخـار ، عدا المتوسطة ، وعدا قدور النحاس ، وقلايات الطباهج ، وكان أن أنضجنا يومها أهلاماً من لحوم البقر ، وإحبارية سمك ، ومـأمونيـة ، وجواذب الدجاج المعـمولة من الأرز والخـبز تارة ، ومن السكر والأرز واللحم تارة أخرى ، ومن الحلو : مخ مـعمول بالسكر المعقـود والعسل ، وبهطة أرز ولبن وسمن وعسل، إضـافة إلى صنوف من الخبز كـالخبز الافرنجى المسمى أفلاعـمونى ، والخبز الفرنى المرقـد ، وخبز القناوى ، والخـبز الماوى ، والخـبز المجـمر . وكنت أجـدنى بمرور الوقت مـشدوداً إلى الحـسين بن فـالح ، على رغم أننى عـند بداية عمـلى معـه توجّست منه ، ولم أقـبل عليه ، فـقد كان غـشوماً عنيـفاً لا يفتـأ يأمر ، وينهى ويزجر ، على نحـو به خشونة وفظاظة ، حتى أننى عنـدما عاد فى مسـاء يوم استـقبال رسـول الروم ، وحكى لنا نحن الوقاديـن ما رآه أثناء

مـروره حامـلاً المجـمرة ضـمن الموكب ، لـم أنبس ببـنت شفـة ، وآثرت السكوت ، والتلذذ بأطايب الطعام الذى قدّموه لنا من بقايا الوليمة العظيمة والسماط المهول الذى مُـدّ لرسول الـروم ، ولقـد حكى الحسين ، وقتها ، ما لا يمكن أن يصدّق أو يُدرك بعقل عن موكب هذا الرسول ، وما بُذل فى سبيله بالقصر لإظهار عظمة خليـفة المسلمين ومدى قوّته وجبروته، فقال إن الخليفة رسم أن يطاف بمبعوثى ملك الروم ، وكانا شيخاً وشاباً ، فى جميع أنحاء القصر ، بعـد أن أخرج العسكر جميعـاً منه، ولـم يُبْقَ فيه إلا الخدم والحجّاب والغلمـان والسودان ، وعددهم سبعـة آلاف خادم ، منهم أربعة آلاف من البيض ، وثلاثة آلاف من السود ، أما الحـجّاب فزادوا عن السبع مئة حاجب .

وفتحت الخـزائن للموفدين ، والآلات فيهـا مرتبة ، كمـا يُفْعَـل لخزائن العرائس ، وقد عُلقت الستور ، ونُـظم جَوهر الخلافة فى قلايات على دُرُج قد غشيت بالديباج الأسود .

فلما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها ، كثر تعجّبه فيها ، وكانت شجرة من الفضة وزنها قد يزيد علـى خمس مئة ألف درهم ، عليها أطيار مَصنـوعة من الفـضة ، تصفـر بحركـات قد جـعلت لها ، فكان تـعجب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده .

وكانت الستور الديباج الموشاة بالطرز المُذهبة الجليلة ، المصورة بالجامات ، والفـيلة ، والخيل ، والجـمال ، والسبـاع ، والطرد ، والسـتور الكبـار الصنعانيـة ، والأرمنية ، والبهنسـية ، السواذج ، والمنقـوشة ، والدبيقـية المطرزة تبلغ الآلاف من حيث العدد . وكذا كانت البسط والنخاخ الجهرمية ، والدار بجردية ، والدورقية ، فى الممرات والصحون التى وطأ عليها القواد ، ورسل صـاحب الروم ، سـوى مـا فى المقاصـير من الأنماط : الطبـرى والدبيقى ، التى لحقها النظر دون الدوس .

ورغم أننى أثناء ذلك كنت ما أزال متحفظاً تجاه الحسين بن فالح ، إلا أننى شعرت بتباسطه وتلاطفه مع صبيانه ، ومن هم أدنى منه فى عمل الوقايد ، ولم يكن يغضب منهم حتى حين نعته أحدهم بالمبالغة والكذب ، بينما كان يروى انبهار رسولى ملك الروم بكل ما شاهداه ، خصوصاً لما أدخلا إلى الدار المسماة بخان الخيل ، وهى دار - كما قال - أكثرها أروقة بأساطين رخام ، وبها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس ، عليها خمسمائة مركب ، ذهباً وفضة بغير أغشية ، ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس ، على كل منها جلال من الديباج بالبراقع الطوال ، وكل فرس فى يد شاكرى بالبزّة الجميلة ، ثم أدخلوا من هذه الدار إلى الممرات والدهاليز المتصلة بحير الوحش ، وكان فى هذه الدار من أصناف الوحش التى أخرجت إليها من الحير قطعان - كما قال - تقترب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم .

ثم أخرجوا إلى دار فيها مئة أسد : خمسون يمنة ، وخمسون يُسرة ، كل سبع منها فى يد سبّاع ، وفى رؤوسها وأعناقها السلاسل والحديد .

وبملازمتى للحسين الوقت الكثير خلال عملى معه فى نوبات الليل ، وجدتنى أنجذب إليه شيئاً فشيئاً ، ولم أكن قد افتهمت لماذا يبقى عاملاً ساهراً ، طوال ذلك الوقت ، وهو الريس المعلم الذى يعمل الجميع تحت إمرته ولا تدخل فحمة أو حطبة إلى بيت النار إلا بإذنه ، لكننى بعد حين أدركت أن الخليفة يسهر عادة أثناء الليل ، حيث تجلب له المغنيات والقيان ، ويتنادم معه الأفاضل من أهل العلم والسُمّار ، وأصحاب المغانى من العبيد والجوارى الحسان ، وخلال ذلك تقدم له أطايب الأطعمة وكل مفتخر من الأشربة ، ونحو ذلك من النوادر المجلوبة من كل صقع من أصقاع الخلافة ، لذلك يبقى الحسين ساهرا على ما تحتاجه سُفرة الخلافة وصاحبها من مطالب ومآكل تحتاج الحرارة والإنضاج .

وفى ذات مرة ، وبينما نحن جالسان أمام الوقايد بمفردنا ، الحسين ، وأنا ، وكان أقرانى من تبعيته قد خلدوا إلى النوم ، وإذ بالرجل الذى كنت أظنه غليظ القلب ، يشرع فى الدندنة والغناء بصوت حساس شجى ، ووجدت من أظنه خشناً غشوماً ، يرق ويلين وهو يذهب بالغناء من مذهب إلى مذهب، بسلاسة وطلاوة كأنه طارب قدير، فلما وصل بغنائه إلى الحدّ الذى قال فيه :

ألا ربّ همّ يمنع النوم دونه أقام كقبض الراحتين على الجمر

بسطت له وجهى لأكبت حاسداً وأبديت عن ناب ضحوك وعن ثغر

وشوق كأطراف الأسنّة فى الحشا ملكت عليه طاعة الدمع أن يجرى

وجدتنى لا أتمالك نفسى وقد هزّتنى الكلمات وأسكرتنى النغمات ، وحلّقت بى المعانى ، فتركت لروحى العنان ورحت أبكى وأنتحب حتى أخرجت ما حبسته فى قيعان نفسى من ألم ومرار، وقد أصبحت دون القدرة على ضبط النفس والاصطبار .

فلما وجدنى الحسين باكياً ترك ما بيده ، وكان يراقب عكيكة قد اشتهاها الخليفة وطلبها خصيصاً فى هذه الليلة ، ثم إنه التفت إلى وبدا مدهوشاً وقد فاجأه نحيبى ، وسرعان ما تحرك نحوى وراح يربت على كتفى ، وكأنه يفكر فى أمر من الأمور ، ثم أبرز من جيبه لفيفة صغيرة ، أخرج منها كريّة ذات لون أخضر مكتوم ، طلب منى ابتلاعها ، فلما تراجعت متسائلاً عن كنهها ، وقد تمنّعت ورفضت تذوق ما لم أعرفه وأخبره ، قال بجد :

- ابتلعها ولا تخف ، فإنها سوف تعينك وتريحك كثيراً مما أنت فيه ؛ إنها حشيشة الفقراء يابنى ، وما أدراك ما حشيشة الفقراء ، ألم تسمع من قال فيها :

دع الخمر واشرب من مـدامة حيدر — مـعتّـقـة خضـراء لون الزبرجـد
هى البكر لم تـنكح بماء سـحـابة — ولا عصرت بالرجل يوماً ولا اليد
ولا عبث القـسيس يوماً بكأسـها — ولا قـرّبوا من دنّهـا نفس ملحـد
ولا أثبت النعمـان تنجيس عـينها — فـخـذها بحـدّ مـشـرفى مُـهنّد
وفيـها معـان ليس للخمر مـثلها — فـلا تستـمتع فـيـها كـلام المُفنّد
ستبـدى لك الأيام ما كنت جاهلاً — ويأتيك بـالأخـبـار من لم تزود

فلما سمعت ما قال ، وكنت لم أفتهم إلا بعضه لقصور عربيتى حتى ذلـك الوقت ، زاد ترددى ، لكنه ثبت عـينيه فى إصرار- بـعينىّ ، وكنت ما أزال قانطاً وروحى فـاقدة لكل همة وفى أسفل سـافلين ، فمددت يدى إلى ما قدمـه لى ، وقد تمنيت أن يكون سماً يفنينى ويـأتى علىّ ، فأموت وأستـريح من عذابات هذى الدنيا ، ثم إنى ابتلعت الكريّة واسـتعنت على ذلك بشربة ماء حار كما أمرنى بينما كان ينظر إلى متأملاً إياى ، فما لبثت إلا قليلاً ، حـتى وجدت روحى قد هدأت ، وشعـورى قد راق وشَفّ ، وشملنى صفاء برواق ، بينمـا لهيب الجمرات تشتد حمـارته ، وتستحسن عينى منظره وحلاوته ، فلما رآنى الحسين على هذى الحال ، ضحك وراح يُربّت علىّ ، ثم أخذ يغنى مرة أخرى ويقول :

وخضراء بل لا تفعل الخمر فعلها — لهـا وثبـات فى الحـشـا وثبـات
تؤجج ناراً فى الحـشـا وهى جنة — وتبـدى لذيذ العـيش وهى نبـات

قاطعته وأنا أقول بهدوء :

- فليسـامحنى الرب ، ولتـغفر لى ثـورتى يا معلمى ، فأنا تـنتابنى أحوال من صميم اليأس حيناً ، فلا أدرى لماذا يتوجب على مواصلة

الحياة ، وأن أتحمل مزيداً من الألم والكرب . ثم إننى فضفضت بكلام كثير نحو هذا وكأننى أرغب فى البوح بكل هواجسى لأستريح .

ظلّ الحسين مطرقاً إلى الأرض ، مستمعاً إلى كلماتى حتى أفرغت كل ما بداخلى وأنا أحكى له قصتى ، وكل ما عانيته ، فلما انتهيت وكان هناك شيء أشبه بالخدر يسرى فى أعطافى ، فتنحل معه وتسترخى أوصالى شيئاً فشيئاً ، رفع رأسه وقال :

- إسمع يا ولد . أنت فى حاجة للتسرية والتلهى ، يجب أن تتلهى بشيء ، فلو ظللت على هذى الحال فلسوف تطق وتموت بالفعل .

أزدرد ريقه ، بينما التمعت عيناه وابتسم ابتسامة ماكرة ، قبل أن يضيف :

- هل تعرف النساء ؟. سآخذك إلى بيت الخنا . هناك لا بد وأنك سوف تستريح .

قلت متسائلاً بدهشة :

- وما بيت الخنا هذا يا سيدى ؟.

ضحك بشدّة ، فتحركت تفاحة آدم المتضخمة أسفل رقبته بسرعة ، وكأننى قلت ما يضحك ، وردّ :

- منزل هو كسلّة الفاكهة المشتهاة ، تقلّب فيها حتى تختار ما تشتاق إليه من صنوف النساء ، حسب ميلك ورغبتك ، فيه البيضاء ، والصفراء ، والسوداء ، والحمراء ، فتقضى حاجتك وتطفئ شهوتك ، حتى تستريح نفسك ، ويضيع قلقك وتوترك .

- تملكتنى سورة غضب شديدة ، رغم ما أنا فيه من خدر وضعف ، حتى أننى نسيت أنه معلمى فى الوقايد فقلت بغضب :

- ملعون أبو الشيطان ، ماذا تظننى ؟! ألم أقل لك أننى كنت قيماً فى كنيسة قصر الشمع بمصر العتيقة ، أتظن أننى واصل إلى هذا الحضيض ؟! ثم أننى لم أتمالك نفسى وقد داخلنى شعور بالضياع ، فرحت أبكى من جديد .

أسقط فى يد الرجل وشعرت أنه ازداد إشفاقاً على حالى ، ووجدته يهمس بحنو :

- والله إنك لحنبلى أشد من إبن حنبل نفسه . اسمع أيها الولد الطيب ، لماذا لا تتعلم قراءة وكتابة اللغة العربية ؟ هذا شىء مناسب تتلهى به ، ويحسّن كلامك الركيك ، ونطقك الملكون بالقبطية وحتى تكف عن قول إديّنى . وَدِيّنى ، البتاع ، البتوع . راح يضحك مرة أخرى ، وهو يقلّدنى عندما أتكلم ، بينما أخذتنى الفكرة فتوقفت عن البكاء ، وبدأت أفكر فيما يقول . صمتّ قليلاً وتساءلت :

- ولماذا أتعلم العربية بالله عليك وأنا قبطى ؟! أنا أستطيع التفاهم بها الآن ، ولا توجد لدى مشكلة فى الكلام مع كل من حولى هنا ، والكل يفهم ما أقول وأنا أفهم ما يقولونه . رد الحسين وهو ينظر إلى متأملاً :

لا أعرف . أنا أحاول إيجاد سبيل يخرجك مما أنت فيه ، ولتنشغل نفسك عمّا بنفسك من هموم ، وآلام ، قد أستطيع أن أعلمك شيئاً يسيراً كل ليلة ، أثناء فترات صبورنا على النار والوقايد حتى تنضج وتستعر .

ثم إنه تحرك مسرعاً وأخرج العكيكة من الفرن ، فتعجبت من منظرها ، ولم أكن قد شاهدت طعاماً مثل هذا من قبل ، فلما رآنى أحدّق فيها ملياً وقد ظهرت دهشتىّ خصوصاً عندما جاء خادم وأخذها إلى المطبخ كى يهيئها فى الصحاف ، قال :

- لا تدهش، فكل يوم يمرّ سوف ترى فيه عجبًا ، فهم يطبخون للخليفة من أطايب كل مطابخ الأرض ، والعكيكة هذه من الطبخات النادرة التى لا تطبخ إلا هنا ، ولا يعرفها حتى كثير من الخواص ، وليس العوام فقط ، وصنعتها كما شاهدتهم يصنعونها ذات مرة في المطبخ ، أن تؤخذ الإلية الطرية ، ثم تقطع وتسلى ويخرج حمّها ، ثم يؤخذ اللحم السمين ، يقطع صغاراً ويلقى على الإلية المسلية ويحرك حتى يتورد ، ثم يجعل عليه غمرة ماء ويسير ملح ، ويترك حتى ينضج وينشف ، ولا يبقى من مائيته سوى الدهن ، وتلقى عليه كسفرة يابسة ، وكمون مدقوقين دقاً ناعماً ودار صينى ، وفلفل مسحوق ، ومصطكى ، ويحّرك ، ثم يؤخذ من اللبن الفارسى بقدر الحاجة فيجعل فيه الثوم المدقوق ، ويطرح فى القدر ، ويترك حتى يغلى ، ثم تقطع النار من تحت القدر مثلما فعلت منذ قليلٍ وتترك على نار هادئة حتى ينعقد اللبن ويقذف دهينه أعلاه ، ثم يُذّر يسير من دار صينى مسحوق ناعماً ، وتمسح جوانب القدر بخرقة نظيفة وترفع .

ثم إنه راح يدندن من جديد حتى غلبه النعاس ، فانقلب على ظهره ونام فى موضعه على الأرض ، بينما بقيت ساهراً أفكر فى كل ما قال وأنا أحدق فى الجمرات ولهيبها المتراقص أمامى .

صارت معرفتى بالحسين بن فالح تتوثق شيئاً فشيئاً ، فكلما مرت الأيام توغلت فى دروب نفسه ، وكشفت له عن آبار روحى .

كان قد أخذ بتعليمي العربيـة ، و كنت قد تعلمت منها شيئاً على يد عزيز عـيني ثاونا في بر مصر قـبل ذلك ، وقد حمـدت الله كثيـراً لأن ما أدركته منهـا أعانني على محنتي التي عشـتها بأنطاكية ، وكـانت العبارات التي ألممت بها هي معيني وسبيلي في تفهم الذين التقيتهم هناك .

غير أن الحسين بن فالح المراغي هو الذي جعلني أتقدم وأحرز أشواطاً في تعلم العربـية ، فقد ظل صـبوراً عليّ مثـابراً منذ البداية ، بينمـا كان يعلمني رسم الحروف بخط موزون جـميـل ، وهو الذي أتاني بدواة وحبر كان يضعه فيـها بعد أن يصنعه بنفسه من سناج الفحم المتـبقي بالوقايد بعد خلطه بالصمغ الحـضرموتي الجـيد ، وكنا نسهـر سوياً كل ليلة ، نتسـامر ونتحـادث حينًا ثم يعلمني شيـئاً ونحن نتعـاطى حشيـشة الكيف، وهكذا صرت أتقـدم شيئاً فـشيئـاً ، وأدخل عالم الحسين بن فـالح الذي بهرني ، وصيّرني كالمسحور الصاعد على درج لا نهاية له، كلما صعد درجة، وجد نفسه مسحوباً رغماً عنه إلى الدرجة التالية ، وقد بات يكشف لي بين الحين والحين عن وجه من وجوه نفسه العـديدة التي لا تستبين ، وتتموه في ذلك القناع الجاف المرتسم على قسماته وسلوكه الخشن الظاهـر لكل من يعمل معه.

كنت مع مـرور الأيام ، أدرك أن بداخل معلـمي تمرمر مـزمن يفسـد عليه أية سـعادة يرومهـا ، وأي سرور يكون عليـه ، كان بين الحين والحين يُسرّب لي بعضاً من عذاباته بسبب عدم وقـوفه على حقيقة أبيه ، وبدا لي أنه لم يغفر لأمه أبداً ، ليس بسبب ذلك ، وإنما لموتها المبكر ، وقد غدر به وتركه وحـيداً في هذه الدنيـا ، فكم تمنى أن تظل إلى جانـبه لا تذهب ، حتى ولو أتت له بألف شـقيق أو شقـيقة من طريق الإثم والحـرام ، وكان حلم الحسين أن يتمكن ذات يوم من العثـور على أبيه ، والخروج من بغداد إلى موطنه الأصلي بمراغة باحثـاً عن ذلك الأب المجهول ليطفئ نار عذاباته ، لكن الحسين لم يكن يخرج من القصر - في الحـقيقة - إلا ليزور بيت الخنا

فى بغداد ، فيترك نفسه للبغايا من كل لون وجنس ، يعود بعدها وقد هدأت روحه وسكنت نفسه ، ولكن إلى حين ، وفى مرة من المرات ، وكنا قد بلغنا حالة من الصفاء ، سألت الحسين لماذا لا يتزوج بواحدة ويكف عن التقلب بين مثل ذلك الطراز من النساء ، كان السؤال قد خرج منى عفوا ، ودون ترتيب أو تدبير سابق ، فكان أن داخلنى حرج وصرت كمن يرغب فى التراجع عنه ، إذ شعرت أننى قد جاوزت حدّى، وأننى أدسّ أنفى فيما لا يخصنى، غير أن الحسين أراحنى بجوابه وأوقعنى فى معضلة روحية جديدة معه، فبينما أنا أحبه وأجلّه كثيراً فى بعض الأمور، إلا أننى لا أستطيع تجاهل معايبه والجانب المعتم الغامض من روحه ، والأقرب إلى الوثنية ، أو الوحشية الأولى التى ظلت على حالها دون أن تسمو إلى الانسى السامى ، فقد ضحك الحسين طويلا ، وكأنى سألته ما يضحك ، فلما انتهى كح ، وقال بجدّ :

- أتزوج ؟ أنا لا أريد أن أتزوج أبداً يا بدير ، فالحقيقة أن بى شيئاً يجعلنى أرغب فى كل نساء الأرض ، لا واحدة ، ولا اثنتين ، أو ثلاث ، أو أربع يكفيننى . أحيانا أقول لنفسى ، إنما ذلك بسبب أمى ، ربما كنت أحاول القصاص منها فى سرمحتى الدائمة مع النساء ، ومرات أخرى أقول إنما أنا أبحث عن امرأة على شاكلتها ولا أجدها أبداً ، لا أدرى ، لكننى على ما أظن ، لن أتزوج أبداً مهما طالت أيامى فى هذه الدنيا .

بدا لى الحسين ، وهو يقول ذلك ، وكأنه زنديق كافر ، أو إنسان يتراوح دوماً بين الإيمان والكفر ، أو الرذيلة والطهر ، رحت أحدّق بعينيه علّى أجد ما يشفى غليلى ويرسينى على حقيقة أمره ، غير أنه فاجأنى بسؤال صدمنى ، إذ قال :

– وأنت ؟ ، لماذا لا تتزوج ياشاطر وتكفّ عن نسيان آمونة وسويلا ؟!
والله لو أخذتك مرة معى إلى بيت الخنا ، فلسوف تدمن الأمر
إدمانك لحشيشة الفقراء الآن ، ثم أليس لك مثل ما للرجال ؟!
أليس بك حاجة للنساء ، أم أنك عنين بالميلاد ، ولا رجاء فيك
بهذا الأمر ؟!

غضبت منه للغاية ، وقلت له أن هذا ما لا يجوز من الكلام معى ، فأنا لا أرغب الخوض فى مثله ، وندمت أشد الندم على سؤالى الذى أتاح له هتك ستر الحدود بينى وبينه ، فلما وقف على تكدرى وضيقى ، ربّت على كتفي واعتذر بكلمات تطّيب خاطرى ، وقال : هيا أعلمك شيئاً جديداً هذه الليلة . كنت فى الحقيقة أخاف أن أكاشف روحى بسؤاله ، قبل أن أواجه بإجابة ما ، فلقد كنت وما زلت أتعذب برغبتى فى النساء ، فرغم كل ما حدث ، ورغم مراراتى ، وتجاريب الأيام الصعبة معهن ، ولوعتى على آمونة وسويلا ، وقسمى لنفسى أن لا يكون لى أمر مع أية امرأة فى الدنيا بعد ذلك أبداً ، إلا أن رغبتى بهن كانت تداهمنى بين وقت وآخر ، كنت ألاقى آمونة وسويلا فى أحلامى مرات ، فيحدث لى ما يحدث للرجال ، فأفيق وقد أدركت أن الشيطان أغوانى وورطنى فى النجاسات ، فأنقبض وأظل مهموماً طيلة يومى ، حتى يكون وقت المساء فأنغمس فى عملى ، إلى أن يدركنى الحسين بحشيشة تنسينى ما كنت عليه ، والحق يقال إننى قد بدأت أتعود على هذه الآفة ، أتعذب حيناً لعدم وقوفى على محروميتها ، وبت لا أحيد عنها لأنها تريحنى وتدخلنى فى جنات تتهيأ لى وكأنها جنات عدن ، وكأنى أراها رؤية العين وألمسها لمس اليد ، بل وأشمها وأتذوق ما فيها ، فألبث على هذى الحال ساعات من الوقت ، أرفل فى الرضا والسعادة حتى أفيق .

كانت الكتابة قد أزالت عن عينى غشاوات كثيرة ، فبدأت أتدبر أحوال الدنيا ، ضمن تدبرى لأحوالى ، بل وكان ذلك سبباً فى زيادة طلبتى للإسئلة ، لمعرفة أحوال الخلق والعالم ، ولا أدرى ، كيف كان يتم ذلك ، فالحسين بن فالح كان يدفع بى من سؤال إلى سؤال ، وكان تعليمه لى باباً فتحته لألج منه إلى أبواب أخرى ، أدركت من خلالها أموراً عدة ، بما فى ذلك أمور الحسين نفسه، فلقد كنت أظن أن الحسين يبتعد عن القصر حيناً، ليزور بيوت الخنا ، أو للوقوف على أخبار أبيه والبحث عنه مع الذين كانوا قد أدركوا أمه وقت اشتغالها بالأسواق ، لكننى تفطنت إلى أن الرجل كانت له شؤون أخرى بالمدينة ، فهو ينتمى إلى جماعة من الناس تهدف كما يقول إلى إقامة العدل على الأرض . لم أكن أعرف شيئًا عن هذه الجماعة ، لكن الحسين كان يحدثنى طويلاً عن أحوال الناس فى مدينة الخلافة ، وعن آلاف الجوعى الذين لا يجدون قوت يومهم ، بينما هنا فى القصر تبذل الأطعمة والمآكل على قلة من حشم وخدم وجوارى الخليفة ، الغارق فى ملذاته ، والعائش عيشة أكاسرة العجم زمن الوثنية ، وكان يقول لى إن الإسلام دين عدل ومساواة بين البشر ، فلا السواد ، ولا البياض ، ولا الغنى ولا الفقر ، ولا الجنس أو الأصل ، هى أسباب للتفريق بين البشر ، وباعث لتسلط بعضهم على البعض الآخر ، وكان يحكى لى كثيراً عن نبى المسلمين محمّد وعن الإمام على ابن عمّه ، وكيف كانا ورعين عادلين ، أقاما الإنصاف بين الناس ، ولم يكن هناك معيار للتمييز لديهما غير تقوى الله والورع والصلاح ، وكنت عندما أخلد إلى نفسى قبل النوم ، أو عندما أنصرف وحدى لأمر من أمور الوقايد ، أفكر فى كل ذلك، وأعقد بينه وبين ما فى دينى من أمور وصفات تتشابه وتختلف مع ما فى الإسلام من معان ودلالات ، وكنت أتوصل فى النهاية ،

إلى أن الرب ، هو رب كل البشر ، أجمعين ، وأن جوهر كل ديانة ما هو إلا هداية البشر ، ودفعهم إلى طريق السلام والطمأنينة ، وصعود بمداركهم الوحشيـة إلى مراتب أنسية سـامية ، ثم إن الحسين أرتأى ضـرورة تعليمى القرآن حتى أتمكن من العربية ، وأقبض على ناصيتها بثقة ورسوخ ، فأخذ يحفظنى بعضـا من آياته ، بعـد أن أعلمنى أنه مسموح لـغير المسلمين من الملل الأخرى بقـراءته والاطلاع عليه شرط أن يكونوا طاهرين بعـيدين عن كل دنس ووسخ ، وهكذا بدأت الدخول إلى جنة الفرقـان وقد وجدت فى آياته ومعانيـها سلامة وعبرة ، وبدأ قلبى ينفـتح للإسلام شيئاً فشـيئا حتى بدأت أرغب فى اعتناقه ، والحق يقـال ، لقد ظللت متردداً متـشككاً وقتاً ، بل وبقيت روحى معذبة حائرة بينما كنت أسأل نفسى الأسئلة وأتمثل أمامى عزيز عينى ثاونا وهو يجيبنى عليها ، وكثيراً ما قلت لنفسى ، لو كان ثاونا مكانى فـإنه لا بد أن يؤمن بما آمنت به ، ويدخل فى دين الإسـلام مثلمـا أرغب وأريد ، ثم إنني عندما كنت جالساً وحدى أمام الوقايد فى نهاية ليلة من الليالى أفكر محدقاً فى النار ، تذكرت ما قاله لى ثاونا ذات يوم ، من أنه قرأ فى إنجيل قـديم جداً عندما كان فى دير بصـحراء القلزم - وهو من الأناجيل المرفوضة فى الكنيسة الآن - أن السـيد المسيح ذكر لتلاميذه أن ابن الموعد هو إسماعيل ، وأنه جاء ليمهد الطريق أمام المسيا المنتظر ، بل وأكد أنه ليس أهلا لأن يحل سيور حذائه ، وأن هذا المسيا هو محمد نبى المسلمين ومن علامات ظهوره ، سقوط عبادة الأصنام ، واستقرار غمامة بيضاء عليه عند ارتحاله من مـوضع إلى موضع ، وأن الكنيسة رفـضت هذا الإنجيل ، المسمى إنجـيل برنابا ، والمحتـوى على رسالة برنابا هذا ، وعـلى جزء من كلام راعى هرمس ، إضافة إلى ما تحويه الأناجيل الصحيحة الأخرى .

كانت أفكارى قد تبلبلت وقد تذكرت كلام ثاونا هذا ، وبقيت وقتاً جامداً أفكر فى معنى كل ذلك الكلام ، وبينما أنا جالس على هذى الحال ، إذ شعرت وكأن يداً قد لمست كتفى لمساً حانياً خفيفاً ،فالتفت لأرى من ورائى ، إذ كنت مدركاً أن كل من حولى نائم وحتى مُعلمى الحسين بن فالح ، فتعجبت إذ لم أر أحداً واقفاً خلفى ، وإذ استدرت لأرى ، سمعت همس ثاونا قوياً واضحاً فى أذنى : لماذا أنت خائف بالله عليك ؟! افعلها وتوكل على الله .

لا أدرى هل كان ذلك هو الوقت الفاصل الذى أعلنت لنفسى فيه دخولى دين الإسلام ، أم أن الأحداث المتواترة بعد ذلك هى التى دفعتنى دفعاً إلى ذلك ، إن اللحظات الفاصلة فى الحياة هى أصعب اللحظات وأبعدها عن اليقين ، فهى ومضات يغلب فيها الجوهر على المظهر ، وتتخالط فيها الثوابت الساكنات مع المستجدات المتغيرات ، وتضيع فيها الإجابات مع الأسئلة : متى وكيف ولم حدث هذا ، إنها البرزخ الفاصل الواصل بين ما كنت وأصبحت ، وقد اكتملت ليلتى بما لم أكن أفكر فيه أو أنتويه ، إنما هو قدر قُدّر لى ، وطريق لم أملك إلا السلوك فيه .

بعد ذلك بقليل غفوت وقد قر عزمى على أن أُنبئ الحسين بن فالح برغبتى فى إشهار إسلامى عندما أفيق ، وكنا قد تعاطينا حشيشة الفقراء معاً قبل أن ينام ، ولا أدرى كم من الزمن نمت ، أو كيف مر الوقت وأنا نائم ، فقد أفقت مذعوراً بينما الحسين يهزنى بعنف ، وأصوات الديكة بحظائر القصر تخترق مسامعى ، وهو يقول لى :

- بدير .. فزّ بسرعة ، إنهم يطلبون مجمرة جديدة للخليفة ، لأن ما لديه فى مجلسه من نار ، قد صفا وانطفأ وقارب على الانتهاء .

- قمت مهرولاً بسرعة ، أحـضرت المجمرة ، ورحت أضع الجمرات فيها بكماشة النار النحاسية ، التى هى على هيئة فك أسد ، وبينما كنت أوشك على الانتـهاء من ذلـك وأهم بارتداء نعلى للذهاب ، جاءنى صوته حازماً آمراً :

- تهيأ ولا تتهيب .

لم أع المقصود بعبـارته ، إذ كنت ما أزال بين النوم والصحو ، لكننى سارعت الخـطى وراء الحارس الذى جاءنا طـالباً النار ، والمجمـرة فى يدى أحملها بكل احتـراس وتنبه ، ورحت خلفه أجتاز دهليزاً إثر دهليـز مهتدياً بنور الشعلة التى يحملها ، ثم إنى هبطت أفنية وفـسحات وصعدت سلالم خلفه ، حتى وصلنا أخيراً إلى موضع عليه باب مهيب التمعت فضته وذهبه على ضوء شعله الحـارس ، بينما وقف ديدبانان لم يسمحـا لنا بالاقتراب من ذلك الباب ، بل راح أحدهما يطرقـه طرقات حيية ، وتراجع خطوات إلى الخلف مشيراً إلىّ أن أتقـدم ، وبينما هممت بالخطو ، إذ بالباب ينفتح لتنبعث من ورائه أصوات غناء وطرب، بينما شادية يتـصاعد صوتها سحراً ودلالاً وهى تنشد :

يا ليل دم لى لا أريـد صـبـاحـاً حـسبى بوجه مـعانقى مـصبـاحـاً

حـسـبى به بدراً وحـسـبى ريقـه خـمـراً وحـسـبى خـده تفـاحـاً

وماهى إلا ومضة زمـان . . حتى استبانت عن الفتـحة المواربة للباب جارية لم أر أحسن منهـا منظراً وقد امتثلت أمامى . ولا شىء عليـها غير غلالة رقيقة مقصّبـة وقدّمت كوزاً من لجين ما كان إلا يدها لتتناول المجمرة منى .

لن أدرك أبداً ، مهما مرّت بى الأيام ، هل كنت أعيش الحقيقة خلال ذلك الوقت ، أم أننى كنت فى فردوس ونعيم ! هل كانت حشيشة الفقراء هى التى هيأت ما تهيأ لى ، أم أنها كانت الحقيقة متجلية عياناً لكل من رأى وشاف ! فصورة الجارية بدت لى على نحو نورانى لا يمكن أن يكون جسدانياً ، خصوصاً ، وأنها بدت لى خلال وهلة من الزمن وكأننى رأيتها قبل ذلك ، وقفت متسمراً هنيهات ، أشحذ ذهنى غير مصدق ، وفجأة تذكرت منامى الذى كنت قد رأيته ذات مرة وأنا على الحراقة فى البحر وقت إبعادى عن بر مصر ، فلم أتمالك نفسى وكاد أن يغمى على ، إذ أدركت أن هذى الجارية ما هى إلا الفتاة التى كانت تدفعنى فى الماء إلى البر وأنا لا أعرفها ، فها هو حالك الليل المنهمر شلالاً حتى الردفين على بياض جسدها الظاهر عبر الغلالة اللطيفة ، وها هو المبسم الياقوتى ينفرج عن السن الوضاء الذى رأيته فى منامى ، أما العينان فكانتا النار التى أحرقت حسّى عندما رأيتهما تلتمعان بغزير الخَضَار بينما هى تنظر إلى ، فشعرت بدوران الأرض تحتى بينما راح بركان يثور بدمى ، ورياح تعصف بصدرى ، وبدلاً من سقوطي على الأرض بما أحمل فى يدى ، وقد شملتنى زلزلة جوّانية عنيفة ، وقد رأيت نهديها وأوشكت على ملامستهما والقبض عليهما بيدى لأهصرهما ، وجدتنى ودون أن أدرىَ أمد راحتى ببطء إلى جمرات النار المشتعلة ، وقد تسمرت بمطرحى ، وتجّمد ناظرى على البدر النورانى المشعشع أمامى ، ثم رحت أحفن هذه الجمرات وأقبض عليها بقوة وعنف ، وقد توقّدت بداخلى ، واشتعلت ، جمرات من نار أقوى وأشد ، وصرت كمن مسّه مسّ من شيطان أو جان، فلم أشعر بأدنى حرقة أو ألم، ولم تندّ عنى آهة أو صرخة ، وكأن ما حفنته وقبضته لم يكن إلا قبض ريح أو زلال ماء .

نظرت إليّ الجارية مذهولة ، وكـذا كل من كانوا حـولى ، ما أن رأوا يدى قابضـة على الجمر ، وقد بدأت راحـتى فى الاحتراق والتهـرؤ ، فما لبثت الفتاة قليلاً إلا وصرخت صرخة عظيمـة وكأن الصيحة قد أدركتها ، لتسقط على إثرها مغشية عليها أمام الجميع .

لا أدرى كم من الوقت مرّ علي وأنا على هذه الحال . كل مـا وعيته بعد ذلك هو أن رجلاً ظهر فى جمع حـوله ، وعليه طيلسان مذهب ، ما أن رآه الديدبانان والحارس ، حـتى خروا ساجـدين جميعـاً ، فأدركت أنّه الخليـفة ، لكنى بقـيت على ما أنا عليـه ، لا أبالى بكل ما حـولى ، ولا أشعـر لهيب النار الآكل لجلدى ولحـمى ، فمـا أن رآنى الرجل على هذى الحال ، والجارية ممددة على الأرض ، حتى هتف بصوت مهزوز ، أحسنت هزّته قوة المفاجأة ، وقال بكل هيبة ووقار :

- فليـرحمك الله ، وليـغفر لنا أيهـا الشاب المسكين . اذهـب أيها العبد . أنت طليق ، والجارية لك .

ثم تركنا ودخل من حيث جاء .

خرجت من قصر الخليفة فى صبيحة اليوم التالى ، أصطحب الجارية ، ومتـاعى القليل وقـد كومتـه فى بقجـة ، وكان كل مـا أملكه : قليل من الدريهمات أعطونى إياها وقـالوا أن الخليفة نفحها لى مع الجـارية ، إضافة إلى رقعة موقّعة وممهورة بما يثبت أن الجـارية ملكى يجوز لى التصرف فيها مثلما أشـاء ، فيحل لى الاحتفاظ بهـا أو بيعها أو وهبهـا ، وكان معلمى الحسين بن فالح قد سارع بمداواتى بعـد رجوعى إلى الوقايد ، فدهن يدى بزلال بيضة ودهن صبار ورشّ عليـها بعضاً من طحين ، ورغم آلامى التى كانت لم تزل قـوية ، حاضـرة فى راحتى ، إلا أننى كنت سعـيداً بعـتقى وعودة حـريتى ، وفى ذات الوقت داخلنى شعـور بالتعـاسة بسـبب فراقى

الحسين بن فالح ، وغلب همّى لأنى مغترب فى هذى البلاد ، ولا أحد أعرفه فيها غير الحسين ، وها أنا مضطر إلى مفارقته منذ هذا الحين . والحقيقة : لقد خشيت أن تعصف بى التعاسة والضياع ، فأهيم على وجهى مرة أخرى ، مثلما كان الأمر فى مبتدأ زمانى ، وقبل التحاقى بكنيسة قصر الشمع .

غير أن الحسين - أيده الله - رتب لى كل شىء ، فبينما هو يودعنى ونحن سائران معاً إلى باب القصر ، أعطانى مكتوباً لبعض أصحابه ونصحنى بالتوجه إليهم فى ناحية من نواحى المدينة ، وقال إنهم سيقدمون لى كل عون ، وسيكونون بالنسبة لى بمثابة الأخوة الأوفياء .

ثم إنهم أعطونى مكتوباً بالأمان من الخليفة ، لئلا يعترضنى حرس ، أو معترض من أولى الأمر فى المدينة ، أو أيا من أهل الاختصاص، فسرت بقلبٍ وجلٍ مخطوف ، وخلفى الجارية تتبعنى ، وكان بى كثير من تخَبط وحيرة ، فأنا لا أعرف إلى أين أتجه ، وهل أتقدم يمينا أم يساراً ، وكنت لا أجرؤ على الالتفات للتطلع أو النظر إلى الجارية ، بينما هى تسير صامتة لا تقول شيئا ، فلما غاب قصر الخليفة عن بصرى التفت إليها ، وكنت قد فكرت فى أمرها طويلاً ، فقلت لها بعد أن استجمعت شجاعتى ، وبذلت طاقة كبيرة لتعيننى على الكلام :

- تستطعين مفارقتى هنا. أنت حرّة من الآن ، ولا حاجة لى بك .

فغرت الجارية فاها ، وتوقفت عن المسير ، وقد أخذت بما قلته لها ، وقالت :

- إلى أين أذهب ؟! أنا لا أعرف أحداً بهذه المدينة ، وقد نشأت قبل أن أشب عن الطوق فى قصر الخليفة . قل لى بالله عليك ماذا أفعل يا سيدى ؟! بربك أبقنى معك ، ولسوف أكون أمتك وعبدتك أينما كنت وإلى الأبد .

اسقط فى يدى ، وشعرت وكأننى قد وقعت فى ورطة حقاً ، فقد كنت بعد عودتى إلى الوقايد ، إثر ما جرى لى على باب الخليفة ، .قد اصبت بنوع من الذهول وفقدان الشعور ، على الرغم من مواساة الحسين بن فالح لى ومحاولته طمأنتى ، وتندره عليّ لفوزى بجارية لا يحلم أحد بمثلها قط ، ناهيك عن أنها من جوارى الخليفة الخواص ، وهكذا بتّ ولا رغبة لى فى شىء بهذه الدنيا ، خصوصاً جنس النساء ، وقد أدركت بعد كل ما جرى فى الليلة الفائتة ، كم أن النفس ضعيفة تجاه شهوات الجسد، وكيف أن هذه الشهوات تسقط المرء من علياء إنسانيته إلى جحر حيوانيته فى لحظات تتلاحق سريعة ، فكرهت أن تكون نفسى على هذا النحو من الضعف والانحطاط ، وعاهدت ربّى ألا أفعل ذلك بوديعته أبداً ، فلا أضع روحى فى موضع التحقير والإذلال ، لذا وجدتنى أقع فى حيص بيص ، ولا أدرى ما أنا فاعل مع هذه الجارية حقاً ، لكننى رفقت بها وبحالها ، فقلت :

- إذن ، اذهبي معى إلى حيث أنا ذاهب ، لكن أنت من الآن بمثابة أختى ابنة أبى وأمى ، ولن ألمسك أبداً مهما كان الأمر ، وليقدّر لك الله كل خير ، وليعيننى على نفسى ، وما تقدّمه الأيام .

سرنا بعد ذلك ونحن نتجاذب الحديث ، فعرفت أن الجارية اسمها ريطة ، لكن هذا ليس اسمها الأصلى ، فلقد خُطفت وهى طفلة صغيرة فى غارة من غارات اللصوص على بعض المواضع التى كان يقيم بها أهلها من البدو ، المرتحلين من مكان إلى مكان ، وهى تذكر أمها جيداً وما فتئت تحّن إليها بين حين وآخر ، وكانت أمها تناديها تمارا ، وقالت لى إنها لا تعرف لها أهلاً منذ أن بيعت لنخاس ببغداد ، وظلت تنتقل من سيّد إلى سيّد ، حتى قدمها آخر رجل كانت عنده كهدية إلى الخليفة ، فجعلها فى مجلسه بسبب مهارتها وحذقها فى الدق على الآلات ، وصوتها الحلو فى الطرب والغناء .

تتبعت الخريطة التى رسمـها لى الحسين المراغى بدقة ، فقطعت دروباً وحارات ، منعطفاً ذات اليمين مرّة ، وذات الشمال مرّات ، ثم إننى عبرت جسوراً علـى النهر ، وأخيراً وجـدتنى ، مع الجارية ، فى خطة من خطط المدينة يقال لهـا خان أبى زياد ، وهناك سألت عـمن أقصده وهو الشـهاب الحلاج ، وكان النهار قد استبان وتوضّح بنور شمس مهيمنة عنود لا ترحم ، فدلـنى الناس على موضع به رجل فى دكـانه يحلج القطن مع صـبى له ، فلما رآنى واقفاً ببابه قام إلىّ فتقـدمت منه ، وعرّفته بصفتى وحالــى ، ثم أعطيته رقعة كان قد كتبـها له الحسين بن فالح ، فلما قرأها أشار إلىّ صبى من صبيانه ، وطلب منه أن يأخذنى إلى ربع قريب ، كان به منزله ، فلما اقتربنا منه وجـدته داراً قوراء نبيهة البـنية بالنسبة إلى ما جـاورها ، ساذجة بادية مُلطّخـة الجدران بالطين الأحـمر ، مـتقـابلة الأشكال ، ثم إننا ولجنا خلف الصبى إلى بيوتها ، وكانت غرفاً لاطيـة السقف غير مهذبـة الخشب ، بأعلاها غرف من جنبها ، يدور بداخلها برطال مُـستعل على أرجل متّخذه من اللبن والحجر المُلّبس بالطين على غير دراية أو نظام .

ثم إن الصبىّ نادى من خلف أبواب الغرف على أهل الـبيت ، فجاء صوت امـرأة ، أظن أنها كـانت زوجة الشهـاب الحلاج ، لأنه قـال لها : زوجك يقرؤك السلام ، ويبعث لك بهذا الرجـل وجاريته ، فأنزليهم بمنزلة أهل البيت .

فما لبثنا إلا وخرجت إلينا امرأة مـستـورة ، لا يستبين منها إلا عينان واسعتان كـحبتى لوز ، فحيّـتنا وسألت الصبى أن يسبقهـا ويصعد بنا إلى واحدة من غرف البيت ، حتى نعرف مستـقرنا ونستريح ، فلما دخلنا الغرفة ، ذهب الصبى إلى المرأة ، وغاب قليلاً ، ثم عاد إلينا بصـفحة عليها بعض من سفـرجل ، وتفاح ، وشراب ورد لا أظننى شـربت أطيب منه فى يوم من الأيام .

كنت خلال ذلك ، ما أزال أفكر فى أمر الجارية ، وبت حائراً أتراوح بين التخلّى عنها ، والإبقاء عليها ، فلما جاء الشهاب ، قرب حلول المساء ، بعد فروغه من عمله ودكانه ، جلس إلىّ ، فبحت له عمّا بنفسى تجاه الجارية ، وأخبرته برغبتى فى مفارقتها ، على نحو لا يسبب لها ضرراً ، ولا يلحق بها مكروهاً .

فكر الشهاب قليلاً ، ثم أشار علىّ أن أترك الأمر بضعة أيام ، حتى يأذن الله فى أمر الجارية ، ثم إنه قام وأخذها إلى امرأته لتبقى معها وتكون بمثابة الأخت لها ، ووعدنى بأن يجد لى من العمل فى الأسواق ما أقتات منه ، ويعيننى على صروف الأيام ، وذلك بعد أن تشفى يدى وأصبح قادراً على ممارسة الأعمال .

وكنت خلال أيام مكوثى ببيت الشهاب ، أشمّ روائح ذكية بين الحين والحين ، فأتعجب من أن يكون لمثل هذا الموضع كل ذلك النسيم العاطر ، فلما توثّقت علاقتى بالحلاج ، بسبب جلوسه إلىّ وقتاً كل ليلة بعد فروغه من عمله ، وصار بيننا تباسط فى الحديث ، قلت له إن لبيتك رائحة ذكية لا تغيب ، تجعلنى أشعر وكأننى فى بستان ورد أو مرج زهر ، والله لإنكم - أنت وأهلك من المحظوظين - إذ تقطنون موضعاً كهذا ، قد لا يوجد مثله فى المدينة أبداً ؛ ضحك الشهاب ، وردّ قائلا :

- أتظن ذلك ؟! الحقيقة يا ولدى أن امرأتى تشتغل بصنع العطر ودهن الطيب ، وهى فى دارها ، وتبيعه للدلالات والنساء اللواتى يقصدنها لهذا الغرض .

ثم إنّه وعدنى أن يرينى موضع عملها هذا فى الدار . فلما أصبحنا ، صحبنى الشهاب إلى حجرة سفليّة فى مبتدأ صحن الدار ، فوجدت فيها ما لا يحصى من القوارير الصغار والكبار ، منها النحاسّى ومنها الفضىّ

والزجاجيّ ، وكلهـا مليئـة بالعطور ، وكذا أحقـاق مُلئت بدهن الزهور ، فكان الحلاج يجعلني أشتم منها شيئاً ويقول لـي صفة كل منها ، فـهذه متّخـذة من البنفسج ، وهذه من النيلوفر أو النرجس ، وتلك من الكارده أو السوسن ، وكـانت هناك مجمـوعة أحقـاق جميلـة صنعت من الخشب المحـفور على هيئـة أطيار ، وقـد عُبّـئت - كـما قـال - بدهن الزنبق ، والمرسين ، والمرزنجوش ، والبـادرنك ، والنارنج . فتعـجّبت من كل ذلك ومن كون امرأته تعمل في مثل هذا ، وأجللتها كثيراً مثلما أجللته ، إذ بدا لي محترِماً لامرأته ، ومقدِّراً لعملها .

ألحقني الشـهاب الحلاّج بخـدمة صاحب له يدعى العـفيف الورّاق ، وكان الرجل مشتغلا بصناعة الكتاب ، يدفع الناس إليه بما يؤلفون ويبدعون ، فيقوم بنسخه وتجليده بورق يصنعه ، وأحبار يُعدّها لذلك الغرض ، فيخرج آية في الجمال والإتقان ، وعلى نحو يحفظ للزمان ما كتبوه وخطّوه .

كان ذلك قد تمّ بتوفيـق من عند اللّه ، وبمحض الصدفـة ، ففي ذات ليلة ، دخل عليّ الشهـاب ، بينما كنت ساهراً أخطّ بعـضاً من دروس كان قد لقنها لي الحسين بن فالح ، فشاهد ما كتبت وكان آية قرآنيـة جميلـة من سورة العصر ، وهي : " إن الإنسان لفي خـسر " ، فَسُرَّ الرجل لمّا شاهد خطّي سروراً عظيماً ، وقال :

- يا الله . . إن لك خطاً جميلاً . . حُلّت مسألتك والله ، من الغـد سأعهد بك إلى العفيف الورّاق ، ولسوف يفرح بك فرحاً عظيماً .

كان دكان العفيف يقع في سـوق الثلاثاء ، بالقرب من درب العاج ، بخارطة باب الطاق ، وقد أخذت بسـوق الثلاثاء هذا منذ أن دخلته ووطأته قدمي لأول مرة ، وذلك بسبب اتساعـه وكثرة دروبه ، فهناك درب للزيت ، ودرب للأساكـفـة ، وسوق للبطيخ ، وآخـر للصبّانين ، وقـد علمت بعد

ذلك أن هؤلاء باعوا مرة فى ليلة عيد الفطر ألفاً ، وألفاً ، وخمسمائة ألف رطل صابوناً ، على حساب أن كل إنسان يحتاج فى ليلة العيد إلى رطل من الصابون . كما باع الزيّاتون ألف جرّة ، ومائة جرّة ، وثمانية جرار ونصف زيتاً حساب الجرّة ستّون رطلاً .

وكانوا يصنعون بهذا السوق سويق الحمص ، ويبيعون منه كّميات مهولة ، حتى قيل أن ما بيع منه فى وقت من الأوقات كان مئة وأربعين كراً لم يبق منها شيء ، وسويق الحمص غير طيّب إنما يأكله المتحملون ، والضعفاء شهرين أو ثلاثة ، عند عدم الفواكه ، ومن لا يأكله من الناس أكثر .

كان العفيف رجلاً هادئاً كتوماً ، قلّما رأيته مبتسماً أو منفرج الأسارير ، بل بدا مهموماً دوماً ، وكان شعره أشيباً ووجهه مغضناً ، رغم كونه شاباً لم يقف على عتبات الكهولة بعد ، وكانت تلازمه جزّة بأضراسه كمن يصطبر على غمّ ، أو يكتم غيظاً لا ينقضى ، وكنت أظنّ فى البداية أن سكاته وصبره من طبيعة نفسه ، لكننى أدركت بعد أن أوغلت شيئاً فى فنون هذه الصناعه ، أنها ربما كانت طالبة لمثل هذه الخصال ، فالرهافة ، والإخلاص ، والاصطبار إنما هى من لوازم من طلب الوراقة ، والخطّ ، والنسخ ، والتزيين ، والتجليد ، فكل هذا إنما يحتاج ابتداعاً لا يتأتى إلا بالتخييل وفن الأفكار .

ولقد فتحنى دكان العفيف على عالم لم أكن أدركه من قبل ، وهو عالم الدرس والبحث ، فلقد كان ذلك الدكان محّجاً لكل مشتغل بتحرير الأدب وكتابة العلوم ، وكثيراً ما كان يلتقى أصحاب الحاجة للنسخ فيه ، فيتصادف أن تدور بينهم المحاورات ، ويشتعل جدلهم بمتباين الأفكار ، فأظل مستمعاً إلى ذلك ، بينما أنا أعمل فيما يوكله لى معلمى ، صاحبه ، من أعمال ، وقد رأيت فى هذا الموضع بالسمع ، ما لم أره طوال حياتى بالنظر ، وعرفت أقواماً لم ترهم عينى ، لكنى أدركت أفكارهم

ومعتقداتهم ، ووقفت على علماء ، وأعلام ، وشموس ، وأقمار فى سائر العلوم والمعارف ، عبر ما كتبوه وابتدعوه وجُلْتُ ببغداد وأنا فى موضعى أخطّ ثمار فكرها ، وخلاصة عقلها فأيقنت أنها حاضرة الدنيا ، وهى مسجد ، وحانة ، وقارئ ، وزامر ، ومتهجد يرتقب الفجر ، ومصطبح فى الحدائق ، وساهر فى تعبّد ، وساهر فى طرب ؛ وتخمة من غنى ، ومسكنة من إملاق ؛ وشك فى دين ، وإيمان فى يقين .

وكنت فى مبتدأ اشتغالى مع الرجل موّقفاً على تعطين القطن المجلوب حيناً ، من بقايا ما يعمل صاحبه الشهاب الحلاّج ، أو مما لدى الحلاجين الآخرين بالسوق ، فكان على أن أخلط بقايا القطن بالخرق القديمة والماء حتى تتعطّن وتتعجّن وتصبح صالحة للفرد ، ولم يكن مسموحاً لنا ، نحن صبيانه ومعاونيه ، الاطلاع على صنعة الفرد ، ولطافة الورق ، ومواءمته للكتابة والنسخ ، وقد كنت أتعجّب لذلك فى بادئ الأمر ، لكنى افتهمت بعد ذلك أن هذه عادة كلّ الورّاقين ، فسرّ الصنعة إنما هو شأن لا يصحّ أن يدركه سواهم ، حتى تظلّ فيهم فيحكمونها ويسيّرونها وفقاً لمشيئتهم وأهوائهم .

وكان هناك نوع من الكاغد يتم تعتيقه ، حيث يتخذ من الأوانى النحاسية المناسبة ما يوضع فيها الماء العذب الصافى ، ويطرح فيها النشا النقى الجيد ، ويتم غليان ذلك حتى ينقص الماء ، ثم يضاف إليه يسير من مادة الزعفران بقدر الحاجة إلى تلوين الورق ، أو يصبّ فى أطباق وصحاف واسعة ، ثم يغمس فيه الورق غمساً رفيقاً ، ثم ينشر بعد ذلك لكى يجف ، حتى لا تلتصق أطراف الورق ببعضها البعض ، وكلما جفّ يسيراً يقلب على الغاب لئلا يلتصق فيه ، وهكذا حتى يصير الورق فى أحسن حالاته لاستخدامه فى الكتابة .

وذات نهار وبينـما نحن منصرفـون لعملنا بالدكـان ، سمـعنا أصواتاً تتعالى وصراخاً وعويلاً ، فقمنا جميعاً لننظر الأمر ، فإذا بحريق ضخم قد اندلع في سوق الخرّازين ، والناس قد تكالبت لإطفائه ، والقرابيبّة رائحون غادون بـالماء المنقول ، فلمـا هدأ الأمر بعـد ساعـات ، وظهر أن حـدّ ما احـترق من أول سـوق الخـرازين إلى طاق الحرانى ، قـيل إن السـبب فى حدوث ذلك هو أن جمـلاً عليه قصب اجتـاز فى سوق الخرّازين ، وكـان رجلٌ يثقب لؤلؤاً وبين يديه نار ، فوقع طرف القصب على النار فاشتعل ، وبلغت النار الجـمل فى لحظة ، فكان الجمل كلمـا أحسّ وقع النار عدا ، وتناقض الشرار من جانبى الطريق فحـرق كل ما يُجتاز به ، فلم يزل على ذلك إلى أن تلف الجـمل ، وقد تلف ناس كـثيـر فى الدور والعقـار التى لحقها الحريق ، وزالت نعم عظيمة بذهاب الأموال .

وفى مبتدأ الأمر لم يكن العفيف يسمح لى بالنسخ ، إذ كنت ما أزال جاهلاً غشـومًا لذلك الفن العظيم ، الذى يحتاج إلى حـذق ومهارة ؛ إنما كان يعـهد بذلك إلى اثنين من معـاونيه ، يعينونه على مـا يتكاثر عليه من كتب يطلب نسـخها طلاب العلم ، وأصـحاب المصلحة والحاجـة ، وكان أحسن الورق ما كان ناصع البياض ، غرفـاً ، صقيـلاً ، متناسب الأطراف ، صبوراً علـى مرور الزمان، وأعلى أجناس الورق فـيما رأيت هـو البغدادى ، وهو ورق ثخين مع ليـونة ، ورقّة حاشـية ، وتناسب أجـزاء، وقطعه من الشائع المعـروف، ولا يكتب فيه ، فى الغـالب ، إلا المصاحف الشريفة ، وربما استعمله كتّـاب الإنشاء فى المكاتبات الديوانية . ودون ذلك فى الرتبة الشامى ، وهو على نوعين : النوع الدمشـقى ونوع يعرف بالحموى ، وهو دون القطع البغدادى ، ودونهما في الرتـبة الورق المصرى الذى قلّما يصقل وجهاه جميعاً ، وما يُصقَلُ وجهاه يُعرف بالمصلوح ، ثم هناك ورق الفوى ، وهو صغير القطع ، خشن غليظ ، خفيف الغرف لا يُنتفَعَ به فى الكتابة ،

إنما يُتّـخذ للحلوى ، والعطر ، ونحـو ذلك ، ودون ذلك كله ورق الروم والفرنجة ، فهو ردىء جداً ، سريع البلى ، قليل المكث ، وقد رأيت بعضه على غير اتفاق عندما مرّ على العفيف بالدكان ، ذات مرة ، رجل من تجار الكارم الذين يجوبون الآفـاق ، ويذهبون إلى أرض البنادقة ، فعرض بعضاً منه على العفيف ، وكان صكاً مكتوباً بالخط اللاتينى ، لأمر من أمور تجارته .

ثم إن العفـيف أشركنى فى تعلّم صناعـة الأحبـار وسرّها ، رويداً ، رويداً ، فأدركت ما يناسب منها الكاغـد ، أى الورق ، وهو حبر الدُخان ، ولتحضيـره يؤخذ من العفص الشامى ، وهو ثمر يؤخـذ من شجرة ، قدر رطل ، يُدَقّ جريشاً ، وينقع فى سـتة أرطال من الماء ، مع قليل من الآس ، أسبوعـا ، ثم يغلى على النـار ، حتى يصـير على النصف أو الثلثين ، ثم يصفّـى من مـئزر ويترك ثلاثة أيام ، ويصفى ثانيـة ، ثم يضاف لكل رطل من هذا الماء أوقـيـة من الصـمغ العربى ، ومـن الزاج القبـرسى كـذلك، ويضاف من الدخان المتقدم ذكره ما يكفيه من الحلاكة ، ولا بد له مع ذلك من الصبر والـعسل ، ليمتنع بالصـبر وقوع الذباب فيه ، ويحـفظ بالعسل على طول الزمن ، ويجعل من الـدخان لكل رطل من الحبر ثلث أوقـية ، وذلك بعد سحق الدخان بكلوة الكف ، بالسكر النبات ، والزعفران الشعر ، والزنجار إلى أن يُجاد سحقه ، ويمنع صحنه فى صلاية أو هاون حتى لا يفسد وتضيع جودته .

ثم إنه أخـذ يشـركنى فى ذلك الأمـر رويداً ، رويداً ، وقد ظهـر منّى مـا استحسنه فى ذلك الجانب من حسن الملاحظة والمثابرة على الرسم والكتابة ، والتوفيق فى براية الأقـلام ، وما لكلّ من سنّى القلم من الحروف ، وأجناس قطّ الأقلام ، وهو المقصود الأعظم من البراية ، وبعد أن تمكّنت بدرجة من هندسة الحروف ، ومعرفة اعتبار صحّتها ؛ فالألف هى شكل مُركّب من خط منتصب ، يجب أن يكون مـستقيمـاً غير مائل إلى استـلقاء ، ولا انكباب

ومساحتها فى الطول تكون ثمانيــة من نُقط القلم الذى تكتب به ، ليكون العرض ثمن الطول ، وهكذا يكــون لكل حرف سرّه ، وسببــه فى الشكل والهندسة ، وكــان مبــتدأ ما خططتــه نسخــاً هو نوع من التعــاويذ يقال له الأحجبة ، وقــد كنت أظن أنها لا تكتب إلا بالقلــم الوثنى ، مثلمـا كان يفعل قُدامى الكهّان فى برّ مصر ، ومثلما رأيته أكثر من مرة مع عزيز عينى ثاونا ، لكــن العفــيف أخبرنى أن الأحــجبة هى من شــأن بعض المشايخ ، وأنه لا يحبّــذ الاشتغــال بها ، لكن كثــيراً ما كــان يجيئه بعض الناس ، ويلحّون عليه فى كتابتها ، وكان أغرب ما كتبت ، على هذا النحو ، حجاباً لرجل أراد الطيران فى الهواء ، فنسخته عن رق جــاء فيه أنه من أعمال السبع الكلمات المذكورة المسماة القيراشيــة ، وهى عزيمة مستجابة ، ولا يُعمل بها فيما يسخط الله ، ولا تستخــدم إلا فى رضاه ، يجب تبخيرها بالعود بعد قراءة الأسماء ؛ وكتبت فيها ٤٧٢٦٥ حــه قيراش حه هيتزا خورش جه منذ اقشطسن حــه، عنطلنطهسن حــه عدا نقش حــه دينا نقشن حه كطــلطيسن طلعود لطسن حه ، بحق بعضكم على بعض ، وبحــق الكواكب السبعة ، وبحق من اسمه وطاعته واجبة عليكم إلا مــاقضيتم حاجتى ، وكنتم عونى ، وكذا أقــسمت عليكم بالملك الأصــفر ، وبحق الملك الأحــمر ، وبحــقهم عليكم إلا ما قضيتم حاجتى ، وكنتم عونى وأعوانى ، أعينونى ، أقسمت عليكم بيأجوج ومأجوج ، وهاروت وماروت إلا قضيتم حاجتى .

غير أن أحسن ما جرى لى فى دكــان العفيف ، كان تقاربى مع شاب يناهزنى فى العمر ، يقال له اليشكرى ، وكان من أكثر من رأت عينى وسامة من الرجال ، له طلعة محببة ووجه بدرى أليق بملك أو أمير ، لكننى كنت ألاحظ أنه قلمــا يتحدث مــع أحد ، ولا يجتــمع معنا على غــداء ، على الرغم من أن العفــيف عوّدنا أن نأكل سوياً ، نحن صــبيانــه ، بعــد صلاة الظهــر ، بينما هــو يتــوسطنــا ، بل كان اليشكرى يظل منصــرفاً إلى عمله

بموضع التزيين والتـذهيب بالدكان ، وكان أمهر من لدى الـعفيف فى هذه الصنعة ، وذات مـرة دخلت عليه بموضـعه بعد صـلاة العصر ، فـوجدته يتناول غداءه منتحياً ، فتـعجّبت من ذلك وظننت أنه لا يأكل معنا استنكافاً واستعلاءً ، ورحت أتندر عليه قائلا : أتظن أننا سوف نعدّ عليك اللقم إذا ما جلست للأكل معنـا ، أم أننا سنخطف منك ما تأكله ، ألست أدرى بما يفرضه علينا العفيف من آداب السفرة وأصولها ، فنحن لا نأكل إلا متأدبين بثلاثة أصـابع مما هو أمامنا ، دون ذروة القصعـة ، ولا من وسط الطعام، ونلعق أصابعنا قـبل مسحهـا بالخرقة، ونشـرب من الكوز فى ثلاثة أنفاس متـقطّعة ، وقبل جلوسنا إلى الأكل نغـسل أيدينا بأشفان ، وكـذا بعده ، وننظف أحناكنا به كذلك .

فاستغـفر اليشكـرى اللّه من أن يكون امتناعـه عن الأكل معنا كـبراً واستنكافاً ، ورأيت عـينيه تدمعان وهو يقـول لـى إنه لا يخالط الناس فى طعامـهم لأن أكثرهم يتقـززون ممن كانت له علّة مثل علّته ويعـافونه ، ثم شمّر لى عن كمّـيه معتذراً فبدا لى بَرَصَـهُ ووَضَحَهُ وقد أتى على الجلد من عند الرسغ ، وحتى الساعـد ، على هيئة خرائط لا اتفاق فـيها ، وقال أن أكثر الناس يمتنعون عن مخالطته بسبب ذلك ، وإنه لولا مهارته وحذقه فى صناعة التزيين والتذهيب ، واختصاصه بـها، لما كان العفيف قـد صبر عليه وتركه مسـتمراً فى العمل معـه بعد إصابته بهذه العلـة ، فتألمت لذلك تألماً شديداً ، وقد شعرت أننى ظلمته وهيّجت مرارته بذلك ، ورحت أتذكر عزيز عينى ثاونا الذى كـان يخالـط المجذومين ، وينزل إلى مواضـعهم بالبرارى فى عيـد يونان ، فيحـممهم بنفـسه ، ويكسيـهم ، ويواسيهم ، فـهاجت شجـونى كذلك ودمـعت عيناى ، وبت من ذلك الحـين ملازماً لليـشكرى الأبرص ، وقد مسّنى حـزنه ، وعكوفه على نفسه دون مـخالطة الناس ، فوثق بى ، ولان حتى فتح قلبه ، وصار يـفضفض لى عن آلامه ، ومعاناته ،

كـان لا يخرج من الدكان ، الذى ظل يبيت فى سقـيفة أعلاه ، إلا للحتم والضرورة ، خصوصاً وأنه نزح من الكوفة منذ أمد ، ولا أهل له ببغداد ، وأن جُلّ قصده هو الانصـراف إلى مجالس الزُهّاد وشيوخهم، فـهم يبثّون فى أحاديثهم راحة للنفس ، وعزاء عما فى الدنيا والتنزه عنه .

كنت أخرج مع اليشكرى عند الغروب أحيـاناً ، وبعـد أن ننتهى من عملنا فـى دكان العفـيف ، فنسيـر للترّيض على شـاطئ موسى ، والذى يمضى حتى يلاصق قصـر الخليفة ، فنظـلّ ساعة أو ساعـتين نتحادث حتى نبلغ نقطة انقسام الماء إلى الفـرع المؤدى إلى سوق الدواب ، والفرع المؤدى إلى دار بانوقة والذى يفنى عندها، ثم ذلك الذى يدخل باب سوق الدواب ويمرّ إلى العلّافين ، وكان اليشكرى ، كمـا عهدته خلال ذلك ، كلما صفت روحه ورقّت بسبب مناظر الماء والخضرة ، ينفتح قلبه بالكلام ويفضفض لى ببعض ما فى داخله ، فعلمت أنه كانت لديه امرأة تعـشّقها كثيراً ، وجاهد حتى ظفر بها من ذويها ، وبنى بها، لكـنها هجرته ، وطلّقته لمّا أصيب بما أصيب به من علة بعد ذلك ، فتضـاعفت حسرته ، ولعن الزمان وقد ضنّ عليه بما يجود به على غيره من محبة الذين أحبهم ، وقد ضاق صدره وقتاً حتى أنه فكر فى إزهاق روحه ، ليخلص ممـا هو فيه، لكنـه كان أثناء ذلك قد بدأ يعمل فى دكان العفيف ، فبدأ يدرك ما لم يكن قد أدركه من قبل ، ففى ذلك المكان اكتشف – كما قال – أن بغداد ليست مدينة ، بل هى مدن وبلاد ، وأن أسواق الكلام بها أكثر من أسواق المؤن والغلال ، وأنها عوالم متداخلة ، وأفكار متصارعة ، وعقل ونقل ، وأن ذلك كله فتح عينيه على معان لم يكن قد أدركها من قـبل ، فأخذ يتناسى همّه وينشغل بهّم الكلام والمتكلمين ، حتى وقع فى يده ، ذات يوم ، كـتاب لتذهيبه يســمّى كتاب الشكوك ، فانبهر به أيما انبهار، فلمّا سألته عن سبب انبهاره ، قال إن هذا

الكتاب جعله يشكّ فيما كان حتى توهم أنه لم يكن ، وفيما لم يكن حتى توهم أنه قد كـان ، حتى أنه شـكّ فى هجر امرأته له وعـمل على أنها لم تهجره ، وإن كانت قد هجـرته ، وشكّ فى قراءة كتاب الشكوك وإن كان قد قرأه .

ثم إنه ظنّ فى وجوب معـرفة المُنعم وشكره ، وكذلك معـرفة الحسن والقبيح ، واتباع الحسن ، واجتناب القـبيح ، وذلك بالعقل قبل ورود السمع ، وأن الناس محجـوجون بعقولهم سواء منهم من بلغه خـبر الرسول ، ومن لم يبلغه ، وكـلاماً كـثيراً من هذا النوع ، لكنـه سرعان مـا حاد عن ذلك لكثرة ما سمع من إشكالات ومسائل ، وتقارع بالحجج والبراهين ، ولهول ما رأى من أحوال الناس والعـوام، وهؤلاء المتكلمين ، الذين يتكلمون فى ناحية ، والعـامة فى ناحية أخرى ؛ فالناس فى فـقر وإملاق ، والكلام لا يقيم لهـم أوداً ولا يدفع عنهم جوعاً ، فـوقعـوا فريسة الأفّـاقين والشطّار والعيّارين ، يتلاعـبون بجوعهم ، ويشعلونهم حطباً لحـروبهم ضدّ الخليفة والعسكر وأصحـاب السلطان ، فتذبذب أمره ، وشتّ ذهنـه حيناً ، حتى حـزم أمره، وقـرر اعتـزال كل ذلك، فسـار فى طريق العـارفين ، وسلك مسلك السالكين فى الحب الإلهى الخالص ، وقـد طلّق الدنيا وزهد فيها ، واشترى بها محبة اللّه والدين .

كان إعـجابى باليـشكرى يزداد يوماً بعـد آخر ، وتأثرى بما هو عـليه يتضح لى شـيئاً فـشيئاً ، فـقد أيقنت أن مُشكـلى هو أقرب لمشكله ، وأن محنتى فى هذه الدنيا هى الأقرب إلى محنتـه ، وأن تشاكل قدرى مع قدره لم يكن إلا مـن نعم العناية ، ونظر عين اللّه إلىّ بالعطف والرعاية ، فبتّ ألتصق به أكثر فـأكثر ، وقد بهرنى بفكرة السمـو والصعود عن كل ظاهـر موجود ، وقد أدركت أن ما بنفسى لهو قرين لما فى نفسه من حزن وألم ، وأن شعورنا بعبث الوجود ، وتهافت الظاهر المحـسوس ، والمتجسّد الملموس

لهو من اتفاق أسبابنا ، وأن رغبتي في الزهد ، والبعد عن الناس ، تتماثل مع ما لديه من ذلك ، رغم خُلوّى من كل علّة ، وكلّ عيب يدفع الناس عنى ، ويجعلنى أتجنبهم ، وأأوب إلى نفسى .

ثم حدث ذات مرّة أن جاء رجل إلى صاحبى العفيف ، ودفع إليه بكتاب تعهّد أن يبذل مقابل نسخه مائتى درهم ، فلما تصفحه العفيف قليلاً انتفض ، وثار ثورة لم أعهده بمثلها أبداً ، ودفع للرجل كتابه وهو يقول : والله لا أفعل ، حتى لو دفعت لى مال قارون كله ، فلما ذهب الرجل ، وكنا قد تجمّعنا حوله ، نحن صبيانه ، ظناً منا أن هناك مصيبة قد جرت ، جلس يستغفر اللّه وهو فى ضيق وألم ، فلما تفرق الجميع وبقيت معه، استحلفته أن يفضفض لى عما بداخله ، وكان الرجل يستريح لى ، ويلاطفنى ، وينعتنى بالمصرى وهويتندر على نطقى لحرف الجيم مخففاً كما يفعل الفرس، فأخبرنى أن الرجل الذى جاءه هو قريب له ، وهو من أتباع ملّة كان يتبعها العفيف قبل إسلامه ، وهى ملّة كانت قد شاعت منذ زمن قديم، وما زال البعض يتبعها حتى وقتنا هذا ويقال لها الكيومرثية، وأن الرجل دفع إليه بكتاب قديم يخصّ هذه الملة لينسخه له سراً، وهو كتاب كفر وبهتان ، يتضمّن ما حاول إثباته أصحاب المقدّم الأول كيومرث من وجود أصلين هما يزدان وأهرمن ، وقد قالوا أن يزدان أزلى قديم ، وأهرمن محدث مخلوق ، وقالوا إنّ سبب خلق أهرمن أن يزدان فكّر فى نفسه أنه لو كان له منازع فكيف يكون ؟ وهذه الفكرة كانت رديئة غير مناسبة لطبيعة النور فحدث الظلام من هذه الفكرة وسمّى أهرمن ، وكان مطبوعاً على الشرّ والفتنة ، والفساد والفسق ، والغدر والإضرار ، فخرج على النور ، وخالفه طبيعة وفعلاً ، وجرت محاربة بين عسكر النور وعسكر الظلمة ، ثم إن الملائكة توسطوا فصالحوا على أن يكون العالم السفلىّ خالصاً لأهرمن مدّة سبعة آلاف سنة . ثم يخلى العالم ويسلّمه إلى

النور ، والذين كانوا فـى الدنيا قبل الصلح أبادهم وأهلكهم ، وكلام فارغ كثير من هذا النوع ، وقد جاءنى الرجل مـستغلاً قرابته لأمّى ، وكوننا كنا أتراباً منذ الصغـر ، لكنى اهتديت إلى الإسلام والحمـد للّه ، وهو ما زال على دين جدودنا وأهلنا ، حـتى إنه سمّى عياله بأسـماء أعلام هذه الملّة ، فلديه منهم من يسمّى بأسمائهم المقدّسة لدى أهلها مثل ريباس ، وميشة ، وميشانة ، والأخيرين فى عرفهم هما والدا البشر .

وبينما كان العفيف يقول ذلك لى ، تذكرت فجأة حادثة دير أتريب ، فهتفت مقاطعاً إياه :

- إذن . هم من الصابئة . سبحان اللّه !

- لا ، لا : هؤلاء مختلفون عن الصابئة تماماً ، فالكيومريثيون هم من المجوس ، أما الصابئة فهى واحـدة من فرقتين ترجعان إلى زمن إبراهيم الخليل عليه السلام ، ثانيتهما فرقة الحنفاء ، والصابئة كانت تقول : إنا نحتـاج فى معرفة الله تعـالى ، ومعرفة طاعـته وأوامره وأحكامه إلـى متوسط ، لكن ذلـك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً، وذلك لذكاء الروحـانيات وطهارتها ، وقربها من ربّ الأرباب ، والجـسمـانى بشر مـثلنا ، يأكل مما نأكل ، ويشـرب مما نشرب ، يماثلنا فى المادة والصورة . قالوا كمـا ورد فى كتابه العزيز الحكيم : (ولئن أطعتم بشراً مـثلكم إنكم إذاً لخاسرون) ، ولما كان الخليل عليـه السلام مكلّفـاً بكسر المذهبين على الـفرقتين، وتـقرير الحنيفية السـمحة السهلة ، احتج عَبَدة الأصنام قولاً وفـعلاً، كسراً من حيث القول وكسراً من حـيث الفعل ، فقال لأبيه آزر (يا أبت لم تعبد مـا لا يسمع ولا يبصر ولا يُغنى عنك شيـئا) ، حتى بلغ

(فجعلتهم جذاذاً إلا كبيراً لهم) ، وذلك إلزام من حيث الفعل وإقحام من حيث الكسر ، ففرغ من ذلك كما قال الله تعالى (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ، نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم) .

كان اليشكرى قد أخبرنى أن العفيف الورّاق من أصل فارسى ، وإنه كان مجوسى فيِ الأصل فأسلم ، وإن بعضاً من أهله ما زالوا على هذه الملّة ، غير أن العفيف بدا لى ، رغم كونه مسلماً وموحّداً بالله ، رجلا يتبع فرقة من الفرق ، فهو وإن كان من أشياع الإمام على ، إلا أن له جماعة يأتلف بها بين الحين والحين ، وقد تلمّست ذلك بمرور الأيام ، وقد لاحظت زيارة البعض من هذه الجماعة له بين الحين والحين ، وكانوا يمدّون بساط الكلام والمحاورة ، فأدرك أنهم من الخارجين على الخليفة ، الكارهين له ، بسبب أحوال العباد وسياسته للأمور ، وقد كنت قد سمعتهم أكثر من مرة ، خلال ذلك ، يتندّرون ببذخ الخلافة ، وترفها المُسرف يوم وصول رسول الروم ، ويقولون إنّ ما جرى فاق كل ما كان يجرى زمن الأكاسرة ، والأباطرة ، والفراعنة فى الزمن القديم ، وإن ببغداد وبلدان الخلافة كلها ، من يبيت كل ليلة على الطوى ، مما لايحصى من الناس والعباد ، وأن العامة ضجّت فى كل موضع ، بهذا السفه ولم تعد بقادرة على الاحتمال ، مما سيؤول إلى حدوث الفتن وتتابع المحن ، وخراب العمران ، وانتقال القطان ، وإن عصيان أبى مسلم الخراسانى ، وسنباذ ، واسحق الترك ، وأستاذ سيس ، ربما يحدث لو استمر الأمر على هذى الحال ، وربما يحدث ما هو أشد منه وأمر .

كلما تقدمت فى النسخ والكتابة كان العفيف يدفع إلىّ بما هو أهم وأرقى من المخطوطات ، حتى وصل الأمر إلى حد إشراكى فى عمل المترجمات الخطيرة التى يقوم بها أفذاذ العلماء ، وأرباب المعارف والحكمة عن القلم اليونانى ، والقلم السريانى ، والقلم الفارسى ، والقلم الهندى ، والقلم القبطى ، فى كل فرع وصنف من بساتين العلوم والفنون ، فكنت كلما فرغت من نسخ كتاب وهممت بكتاب آخر ، أشعر وكأننى ولجت من جنة إلى جنة ، وغادرت فردوساً إلى فردوس ، وكان هناك رجل لا يفتأ يدفع إلى العفيف بما يترجمه ويصنّفه بين الحين والحين ، وكأن له عقلاً ليس كعقول البشر ، وطاقة على الاشتغال والبحث تفوق طاقة الجان ، فصرت مبهوراً بعمله ، مُجلاً لشأنه ، وكان أن دفع العفيف إلى مرة برسالة وضعها فى أمور النساء وولاداتهن ؛ فلما اشتكى اليشكرى لى ذات مرة من أن له أختاً توأماً ؛ ليس له غيرها من الأخوة أو الأخوات ، قد تزوجت بتاجر كوفى ميسور سوف يحملها معه إلى الغرب ، ليستقرّ بها هناك فى بلدة تدعى طليطلة ، وأن كواعب - وهذا كان اسمها - حامل، بكريّة وهو يخشى عليها كثيراً إن فاجأها المخاض أثناء الرحلة والطريق ، ولا يدرى ما هو فاعل لها ، فارتأيت أن أنسخ له نسخه من رسالة ذلك العالم الجليل ، علّها تنتفع بها إن حدث لها ذلك أثناء المسير ، وكانت الرسالة تتعلق بالحمل من مبتدئه ؛ فعندما تتحقق المرأة من حملها ، فتدبيرها بالراحة وترك الرياضة ، وكل ما أزعج من وثبة ، وصرخة ، وحمل ثقيل ، ونزول من عال ، أو صعود من سافل ، والتقليل من المرطبات حتى تشتد الأعصاب ، وأن تأخذ ما دعت إليه شهوة الوحام بلطف ، فإن الإكثار من الحريف والحامض يضعف الجنين ، ومن الطين يبرد ، وينبغى أن تكثر من السكنجبين ليحلّ الاحتراق ، فإن الوحام عبارة عن احتراق بقايا دم الحيض ، وبعد الخامس أو فيه يكون نبات الشعر فى رأس الجنين ؛ ثم تكثر من أخذ ما يولد الدم ، ما لم تظهر علامات

الاستغناء عنه كوجوده أيام الحيض ، وتدوم كذلك إلى قرب الولادة، ولتقتصر المرأة فى أمراضها الحارة على الأشربة الباردة ، والبارد الجلنجبين العسلى ، فإن اشتدت الحاجة إلى تليين فبخيار الشنبر أو الترنجبين ، فإن الأدوية المُسهلة إما مسقطة أو مضعفة لتحليلها الفضلات فى غذاء الجنين ، فإذا آن وقت الولادة فلتكثر من تناول المزلقات ، ودهن المراق بنحو دهن اللوز والبنفسج ، وتنطّل بطبيخ الأشنان والحلبة ، وتكثر من الاستحمام ، فإن ذلك يسهل الولادة ، فإذا أحسّت بالطلق ، وهو المغص والوجع ، ونزول الماء والدم ، فلتجلس على مرتفع مادّةً رجليها ، موسّعة بينهما ، وتعتمد قابلة حتى يخلص المولود ، فإن سهل ذاك فالمطلوب ، وإلاغمزت ظهرها وأعلى البطن ، وسعّطتها قشور البكتر بالزعفران ، وحملتها بالزبد فى خرق الحرير على الفخذ الأيسر تربطه طاهرة من الحيض ، فإن بدا رأس المولود فالولادة طبيعية وإلا فعسرة ، وينبغى أن يستلقى بناعم من قطن أو حرير ويجتنب البرد إن كان شتاء ، ثم تتدثر هى ، وتُسقَى ما يحلّ الخوالف من طبيخ الأنيسون ، والشبت ، والحلبة ، والزبيب بالعسل ، وفى الشتاء تُمَرّخ بالزيت وقد طُبِخَ فيه الثوم واللاذن .

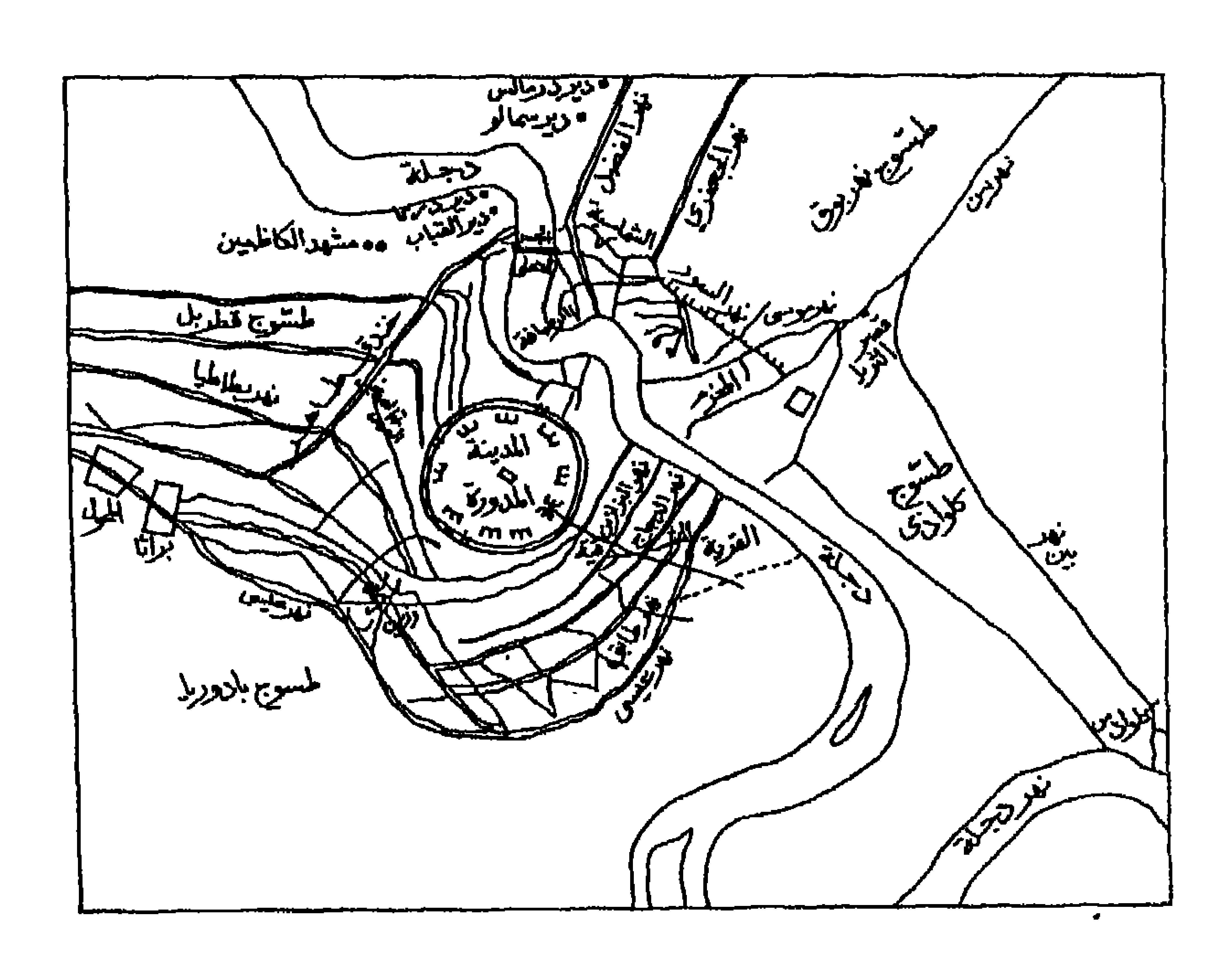
أما المولود فيُبدأ أولاً بقطع الفضلة التى فى سرّته على حد أربع أصابع ، وتربط بصوف خفيف الفتل ، وتضمّد بخرقة بُلّت بزيت طبخ فيه كمون وصعتر ويسير ملح ومرّ ، ويملّح بدنه بملح وشادنة وآس ومر ، وقسط مجموعة أو مفردة ليشتد ، وتمتنع منه العفونة ، والقمل ، وإذا سقطت السرّة بعد ثلاث ضمّدت بالشراب والزيت ، أو رماد الصدف ، أوالرصاص المحروق ، ودم الأخوين والكركم والأشنة للتجفيف ، ويملّح لدفع الأوساخ ، والقمل ، إلا الأنف لضعفه عن الملح ، ويقطر الزيت فى عينيه للغسل ، ويمسح بناعم ، وتغمر الأعضاء وفق الشكل المراد ، والمثانة لإطلاق البول ، ويفتح الدبر بالخنصر ، وبها يتعاهد الأنف بعد تقليم

الظفر لئـلا يجرح ، ويلبس رقيق الثيـاب المناسبة للزمان ، ويفـرش بها ، ويقـمّط حفظـاً للشكل مع توسّط بالشـدّ ، ويرخى على بطن الأنثى لئـلا يكون سببـاً لعدم الحـمل ، وتطلى مراقـه وغضونه بسـحيق الآس والزيت حذراً من التسـميط ، ويغسل بفاتر الماء كل ثلاثة عـدا الشتاء ، والمائل إلى السخـونة كل سبـع فيه ، برفق فـى صبه ، وغـمز المفـاصل ، والقلع ، والتلبيس ، والتنشيف ، والدهن .

وقد حدث أن غاب الرجـل عنّا زمناً ، فدهشت لذلك وتساءلت عن تقاعسـه وهو الذى كان لا ينقطع مجـيؤه إلينا لكثرة حاجـته إلى النسخ ، فأعلمني العفيف أن الرجل مـات منذ حين بداء الزرب بينما كان قد بدأ فى ترجمة كـتاب فى قوام الصناعات لجـالينوس ، قبيل وفاته بـشهرين ، وأنه كان سليـماً مـعافى ، مواصـلاً لعاداته فى الركـوب ، حتى أصـيب بهذه العلة، وقد كان مـشهوراً عنه أنه بعد ركوبه كل يوم يدخل الحمّـام فيصبّ عليـه الماء ، ويخرج فيـلتف فى قطيفـة ، ويشرب قدح شـراب ، ويأكل كعكة ويتكئ حتى ينشف عرقه ، وربما ينام ثم يـقوم ، ويتبخر ، ويقدّم له طعامـه ، وهو فرّوج كبيـر مسمّن قـد طبخ زيرباجاً ، ورغيف وزنه مـائتا درهم، فيحسو من المرقة ، ويأكـل الفرّوج والخبز ، وينام، فإذا انتبه شرب أربعة أرطال شراباً عتـيقاً ، فإذا اشتهى الفاكهة الرطبـة أكل التفاح الشامىّ والسفرجل ، وكان ذلك دأبه حتى مات .

وعلى رغم احتـراز العفيف فى الكـلام معى إلا أنّه بين الحين والحين كـان يدفع لى بكتـاب أوصله إلى مـوضع من المواضع بمدينة السـلام عند جنوح الليل ، وكان يحذرنى مـن أن يرانى أحد خصوصاً من البصاصين أو الدرك ، وكان يصف لى وصـفاً دقيقاً مكتـملاً الموضع أو الدار التى أذهب إليها لتوصيل ما يبتـغيه من مكاتبات ، وكنت أظن فى البداية أن هذه كتب تخص من يتعاملون معـه فى أمور النسخ أو الوراقة ، لكـن ، ذات مرة ،

بعد ما شدّد علىّ كثيراً فى الإحتراز والتنبّه - وليغفر الله لى - وسوس لى الشيطان ، وسوّل لنفسى أن على ما اؤتمنت عليه ، فوجدتنى أفتح كتابه لأقرأه ، فوجدت أنه خريطة مرسومة كان علىّ إيصالها إلى واحد من أصحابه بربض الزهيرية ، وكانت كما يلى :



فلمــا رأيتهــا بهّت وأسقط فــى يدى، ووقعت فى حــيص بيص وأنا أحاول تفهّــم مغزاها ، والتكهن بمعناها ، وبالغرض من إرســالها إلى ذلك الرجل ، وقد حدّثنى قلبى أن وراءها أمراً عظيــماً ، فلما عدت إلى الدكّان فى صبــيحة اليوم التــالى ، ووجدت الفرصــة لأختلى بصاحــبى اليشكرى أفضيت إليــه بما كان من أمر الخريطة ، فسكت قــليلاً ثم قال لى إنه يجب علىّ تكتم الأمر ، وألا أُظهر للعفيف اهتمــامى بذلك ، فلما استحلفته أن ينبئنى بما وراءه ، قال إن العفيف يتبع فرقــة يقال لها النظّامية ، وهى فرقة خالطت كلام الفلاسفة بكلام فرقــة أخــرى يقال لها المعتزلة ، وأن النظّامية تخابطــوا كثيراً ، فاتبعــوا ما تخابط فيه صاحبهم إبراهيم النظّام الذى قال : « إن البارى تعالى ليس موصوفا بــالإرادة على الحقيقة ، لأنه إذ وصف بها شرعاً فى أفعاله فالمراد بذلك أنه خالقها ومنشئها ، وإذا وصف بكونه مريداً لأفعال العــباد فالمعنىّ به أنه آمر بهــا وناه عنها » . كما قــال : « إن أفعال العباد كلها حركات فحسب . والسكون حركة اعتماد ، والعلوم والإرادات حركــات النفس ، ولم يرد بهذه الحركــة حركة النقلة ، وإنما الحــركة عنده مبدأ تغيّر ما ، كما قــالت الفلاسفة ، من إثبات حركات فى الكيف والكم والوضع والأين والمتى » . إلى غير ذلك من كلام متخالط متخابط من هذا النوع ، وأن العفــيف مولع بمثل هذا النــوع من الكلام الــذى يقــوله النظّام بن سيــار هذا فى قوله : « إن الإنــسان فى الحقــيقــة هو النفس والروح ، والبدن آلتهــا وقالبهــا » ، وميله إلى قــول الطبيعيين من الفلاسفة من أن : « الروح هى جسم لطيف مــشابك للبدن مداخل للقلب بأجــزائه ، مداخلة المائية فى الورد ، والدهنّية فى الســمسم ، والسمنيّة فى اللبن ، وأن الروح هى التى لها قوة واستطاعة ، وحياة ، ومشيــئة ، وهى مستطيعة بنفسها ، والاستطاعة قبل الفعل » .

فلما أدركت ذلك ، ووقفت على حقيـقة العفيف ، كتمت الأمـر فى نفسى عملاً بنصيحة اليشكرى ، وبت لا أسأل العفيف فى أمر من الأمور، إلا فيما يخص اشتغالى ولقمة عيشـى .

وكان اليشكرى متعلقاً بشيخ زاهد ، سرعان ما سرت عدوى تعلقه به إلىّ ، وكان الرجل ، كما قال اليشكرى - والله أعلم - قد عاش حيناً فى بلدة تدعى اجتمع لبعض من أهلها ما تبقى من علوم الجريك ، وفلسفتهم، ونحلهم ، كالفيثاغورثية ، والأفـلاطونية الجديدة ، وعلـم الكيمياء ، وعلم الكون الهرمـسى ، وقد ظل لهـؤلاء بعض من رواسب هذه العلوم ، دون أن تستطيع السيول البعدية أن تجرفـها بالكليّة ، فتشرّب هذا الشيخ من هذه المعارف والعلـوم حتى هداه الله إلى الإسلام ، فطـعّم ذلك بذاك ، وفاض لسانه بالحق والحكمة ، فانجذب إليه اليشكرى ، مثلما بتّ أنا منجذباً إليه . كان شيخنا يعقد مجلسه بعد صلاة العصر ، فى زاوية من الزوايا ، فنجتمع إليه لنستمع إلى قطوف حكَمه ، وثمار أفكاره ، وقد أدركت من خلال ذلك - فيمـا أدركت - عالمَ الأنوار القاهرة ، وعـالم الأنوار المدبّرة ، والعالمين المحسوسين السماوى ، والأرضى ، والعـالم الظلمانى ، والعالم المستنير ، وكان الشـيخ يقيم علمـه على هدى من الآية الكريمة " الله نور السـموات والأرض ، مثل نـوره كمشكاة فـيهـا مصـباح ، المصـباح فى زجـاجة ، الزجاجة كـأنها كوكب درّى يوقد من شجـرة مباركة زيتونة لا شـرقية ولا غربية ، يكاد زيتهـا يضىء ولو لـم تمسسه نار ، نور على نور ، يهدى الله لنوره من يشاء " .

وشيئاً ، فشيئاً ، بدأت رياضتى العبادية ، والارتحال من الغرب حيث حقل المادة والجسم ، إلى الشرق حيث مـقامات النور ، وكان ذلك يقتضى عبور أربعة عشر تابوتاً ، وهى تمثل القوة الجاذبة ، والماسكة ، والهاضمة ، والدافـعة ، والغـازيّة ، والمولّدة ، والمصـوّرة ، والناميـة ، والغضـبيّـة ،

والشهوانيّة ، والأخلاط ، والقبـور العشرة من الحواسّ الظاهرة والباطنة ، وكل ذلك حتى أتجاوز الأفلاك السمـاوية وأعرّج بواسطة العقل الفاعل ماراً بكل العقول حتى أرسو عند أعتـاب نور الأنوار ، فتهنأ نفسى بتحررها من سجن المادة ، ودخولها فى مقامات النـور .

وكان المشى سبيلى إلى بعض من ذلك - وفقاً لشيخنا - فلما كنت لم أزل فى مقـام الطالبين ، وهو أول المقامات الخمس فى الزهد ، فـقد كنت أسير كلما وجدت إلى ذلك سبيلاً ، مع صديقى اليشكرى ونظلّ نسير حتى يتعبنا السير وتُكدَ جسومنا .

غير أن الأيام أظهرت لى أن العفـيف لم يكن مثلما ظنّ اليشكرى من أنه يتبع النظّامية، أو هذا ما وضح لى عيانـاً - على الأقل - فقد حدث أن قام رجل من ناحية طريق الأنبار يقـال له الدريوش ، فدعا جيرانه ، وأهل بيتـه ، وأهل محلّتـه إلـى أن يعاونوه على الأمر بالمعـروف ، والنهى عن المنكر ، فأجابـوه إلى ذلك ، وكان ذلك بسبب أن فسّاق الحـربيّة والشطّار الذين بالمدينة آذوا الناس أذىً شديداً، وأظهـروا الفسق ، وقطـع الطريق ، وأخذ الغلمان والنسـاء علانية من الطرق ، فكانوا يجتمعـون فيأتون الرجل فيأخذونا إبنه فيذهبـون به فلا يقدر أن يمتنع ، وكانوا يسألون الرجل أن يصلهم أو يقرضهـم فلا يقـدر أن يمتنع عليهم ، حتى إن كـثيراً من الناس حبسوا أولادهم ونساءهم عن الخروج إلى الأسواق خوفاً عليـهم ؛ وكان هؤلاء الأشرار يجتمعون فيأتون الـقرى ، فيكاثرون أهلها ويأخـذون ما قدروا عليه من مـتاع ومال ، وغيـر ذلك ، لا سلطان يمنعـهم ، لأن السلطان كان يعـتزّ بهم ، وكـانوا بطانته ، فلا يقـدر أن يمنعهم من فسق يركبونه ، وكـانوا يجبون المارّة فى الطرق ، وفى السـفن ، وعلى الظهر ، ويخـفرون البـساتين ، ويقطـعون الطرق علانية ، ولا أحد يعدو عليهم ، وكان الناس منهم فى بلاء عظيم ، ثم كان آخر أمـرهم أنهم خرجوا إلى قطربل فـانتهبوهـا عـلانية ، وأخذوا المتاع ، والذهب ، والفـضـة ، والغنم ، والبقر ، والحـمير ، وغـير ذلك

وأدخلوها بغـداد ، وأخذوا يبـيعـونها عـلانية ، وجـاء أهلها فـاستـعدوا السـلطان عليهم فلم يمكنه نصـرتهم عليهم ، ولم يردّ عليهم شيـئاً مما كان أخذ منهم.

فلمـا رأى الدريوش والناس كل ذلك ، ومـا بيع من متـاع الخلق في الأسواق ، وما قـد ظهر من الفسـاد في الأرض ، والظلم والبغي ، وقطع الطريق ، وأنّ السلطان لا يغير عليهم ، مشى ومعه ناسه إلى الصلحاء من كل ربض وكل درب ، وقالوا لهم : «إنما في الدرب الفاسق والفاسقان إلى العشـرة وقد غلبوكم وأنتم أكـثر منهم ، فلو اجتـمعتم حـتى يكون أمركم واحداً لقـمعتم هؤلاء الفسـاق ، وصاروا لا يفعلون ما يفـعلون من إظهار الفسق بين أظهركم» . فأجابوه إلى ذلك وشدّ كل واحد منهم على من يليه من الفُسّاق والـشطّار ، وقد أراد الدريوش مـنعهم مما كـانوا يصنعـون ، فامـتنعوا عليه ، وأرادوا قتـاله ، فتكاثر عليهم الدريوش وأصـحابه ، من أهل الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر ، وقاتلوهم وهزمـوهم ، وكان ممن شارك في ذلك رجل من أهل الحـربيّة يقال له سهل بن سـلامة ، من أهل خراسان ، وقد دعا الناس إلـى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعمل بكتاب الله عزّ وجلّ وسنّة نبيّه صلّى الله عليـه وسلّم ، وعلّق مصحفاً في عنقه ، ودعا الناس جميعاً إلى ذلك ، الشريف منهم والوضيع ، وجعل له ديواناً يثبت فيه اسم من أتاه منهم ، ثم إنه طاف ببغداد وأسواقها وأرباضها وطرقها ، ومنع كل من يخفر ويجبي المارة والمختلفة ، وقال لا خفارة في الإسلام ، والخفـارة أنه كان يأتي الرجل إلى بعض أصحاب البساتين فيقول : «بستانك في خفـرى ، أدفع عنه من أراده بسوء ، ولي في عنقك كل شهر كذا وكذا درهماً . فيعطيه شـائياً أو آبيًا» ؛ وقوى على ذلك قوة عظيمة ، إلا أن الدريوش خالفـه في ذلك ، وقـد ظهر أن العفيف مـعلّمي كان من أتباع سهل ويكاتبه ، وهذا ما علمتـه بعد ذلك من الشهاب الحلاّج ، فلما كسر الخليفة سهـلاً لأنه قال : «إنى أقاتل كل من خالف الكتاب والسنة ،

كائناً من كان ، سلطاناً أو غيره ، والحق قائم فى الناس أجمعين» . سارع العفيف بالهرب إلى مدينة البصرة ، وخرج بعياله فى عزّ الليل تاركاً دكانه وماله ، ثم إنه مرّ زمن قد قارب الشهر بينما أنا قابع فى دار الشهاب الحلاّج لا أغادره ، وقد نصحنى الشهاب بذلك حتى لا أؤخذ بجريرة العفيف وأمثاله ، وأضيع بين الأرجل ، وكنت أتعجب ، خلال ذلك ، من مشاركة العفيف فى مثل هذه الأمور ، وهو الرجل الهادئ المشتغل بصنعة تستلزم كل لطف ودماثة ، فقال لى الشهاب إن ما دفع العفيف إلى ذلك ، وجرّه إلى ما هو فيه هو أنه كان لديه ولد وحيد من امرأة غير تلك التى تحته الآن ، فبينما الغلام مع أمّه في السوق ، ذات يوم ، لأمر من الأمور ، إلا وبعض من فساق الحربيّة والشطّار قد كبسوا السوق ، وعاثوا فيه فساداً ، واختطفوا الصبى من يد أمه ضمن من اختطفوهم ، فجن جنون العفيف ، وراح يبحث عن وحيده فى كل مكان ، حتى هداه الهادون إلى موضع لرجل يهودى اشتهر عنه خصى الصبيان المجلوبين بالخطف والرق، فكبس العفيف الموضع مع جماعة من إخوانه فوجد الصبى ، وقد قُطّ قضيبه، وأخرجت بيضتاه بعد شق مزوداه، وقد وضعوا له فى منفذ البول مرور رصاص ، جعلوه حتى لا يلتحم ، وكانوا يخرجونه أوقات البول ، فانتزع العفيف ولده منهم وهو بين الحياة والموت ، وكاد أن يفتك بالخَصّاء اليهودى لولا أن أصحابه منعوه ، فلما عاد بولده إلى منزله ، لبث قليلا ثم مات ، فحزن عليه العفيف حزناً عظيماً ، وسرعان ما لحقته أمه وقد تلفت كمداً وحسرة عليه . وكان ذلك مبتدأ قَسَم العفيف بالانتقام من مختطفى ولده ، وقاتليه ، فانضم إلى جماعة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى صار ما صار لسهل رئيس هذه الجماعة ، وله . غير أن العفيف أرسل إلى الشهاب أن يدعنى ألحقه إلى البصرة إن شئت ، وقد ترددت فى ذلك كثيراً فى مبتدأ الأمر ، فرغم أن العفيف كان قد أرسل إلىّ ما يعيننى على أمرى ، وأوصى بمن يعيننى على الوصول إلا أننى كنت منقبضاً مغموماً،

فهـا أنا مرّة أخرى مجـبر عليّ السفـر والمغادرة ، وكنت قد استـمرأت فى بغداد الاستقرار والتوطن ، وكان الأمر الذى يشغلنى أكثر من سواه هو أمر ريطة ، فأنا وإن كنت قد أعتقتـها ، إلا أننى كنت أظن نفسى مسؤولاً عن أمرهـا فى كل حال ، ورغـم أنهـا ظلـت فـى دار العفـيـف تعين زوجـته علـى أمورها وتجارتهـا ، إلا أننى كنت أخاف تركها إلى مصـير لا يعلـمه إلا اللّه .

ثم إننى بتّ أخرج من بيت الشـهاب لبعض الوقت ، بين الحين والحين ، بعـدما هدأ الأمـر ، وذات يوم وبينمـا كنّا نسـير منصـرفين إلى درس من دروس شيخنا الزاهد ، قال اليشكرى لى :

- هل تذكر الجواهرى الذى جاء ذات مـرة إلى دكان العفيف لينسخ له رسالة فى الجواهر والأحجار .

قلت :

- لا . لا أذكر ذلك ، ولا أتذكّره .

- قال :

- كيف لا تذكر ذلك ؟ أنسيت ما جـرى يومها ، حين أتاه العفيف بدرج فيه أحـجار وسأله أن يعتـبرها بالمحنة والاختبـار الصحيح ، حتى يعزل ما صح منها ، ويهمل المتبقى ، فأحضر الرجل الأفاعى ، وطلب فـراريج وراح يطعـمهـا حكاكـة هذه الأحجـار ، وكـانت وثلاثين حجـراً ، فصحّ بالمحنة دون العشرة ، وتزّيف الباقى ؟!

- آه . كان ذلك بعد حريق السوق بمدّة . تذكّرت .

- أى نعم . لقد التقيت الرجل اليوم بالصدفة ، وقال لى إنه يريد تذهيب وزخرفة كتاب عن الأحجار ، كتبه له نسّاخ بدمشق ، وقال إنه يستطيع أن يلحقنى بخدمة واحد من أصحابه النساخين هناك ، إن أردت ، ولقد قرّ عزمى على الذهاب ، فأنا هنا بلا عمل ، وقد كرهت الإقامة فى بغداد ، وأريد الارتحال ، هل تأتى معى ؟

كان العسكر قد كبسوا دكان العفيف وانتهبوه بعد رحيله ، ولم يعد لليشكرى عمل كما هو الحال معى ، فقلت له بعد تفكّر .

لا . لقد انتويت أمراً آخر فى نفسى . . أريد العودة إلى برّ مصر .

كنت أقول الحقيقة ، فلقد زاد شوقى وتوحشى إلى بلدى كثيراً ، وكنت أرغب فى البحث عن ثاونا والوقوف على أثره ، وقد عاهدت الله على ذلك ، ونذرت نذراً فى نفسى إن وجدته ، وهو أن أبقى زاهداً عابداً طيلة ما تبقى لى من عمر .

قال اليشكرى :

- ليكن . لكنى سأذهب إلى دمشق ، حتى يصلح أمرى ، ومنها سأرتحل إلى الغرب ، فأنا أريد أن أذهب حتى آخر بلاد المسلمين ، وقد يهدينى الله ، فأهدى قوماً غير مؤمنين ، وقد ألتحق بحلقات درس رؤساء العلماء هناك ، فبلاد الأندلس عامرة بهم وبمعارفهم العظيمة ، لكنى سأعرّج قبل ذلك إلى مكّة فأحجّ إنشاء اللّه ، وإلى الأقصى فأزور مقامات الأنبياء بمدينة القدس .

كنت فى شوق إلى الحجّ وزيارة قبر الحبيب كذلك ، لكننى كنت أخشى أن يطول بى الزمن ، فأعود إلى مصر ولا أجد ثاونا ، أو يكون اللّه قد توفاه . وقعت بين نارين ، لكننى قلت :

فى نفسى نذر ، أعاهد اللّه إذا تحقق أن أحج إلى بيته سبع حجات ، كنت فى قرارة نفسى - وهذه الحقيقة - أريد أن أطلع ثاونا على حقيقة إسلامى ، وأدعوه إليه ، كان هذا منتهى آمالى ومناى ، وكان أمر ريطة يقلقنى كذلك ، فأفضيت بذلك إلى اليشكرى وشاركته فى أمرها ، إذا كنت حائراً ، فأنا لا رغبة لى فيها ، وكأن ماحدث لى بعد رؤيتها فى ليلة أن أمسكت بالجمر قد كان خاتمة شعورى بالنساء ، وكأن ريطة لم تكن إلا سبباً للمباعدة بينى وبين هذا الجنس والزهد فيه، غير أنى كنت موقناً بمسؤوليتى عنها ، وقد غيّرت حالها وأيامها ، وبسببى تركت ما كانت فيه من نعمة وعزّ فى قصر الخليفة ، فلما أفضيت بكل ذلك إلى اليشكرى ، وطالبته بنصيحة ينصحنى بها ، قال :

-خيّرها بين البقاء فى بيت الشهاب ، أو الذهاب معك إلى برّ مصر .

قلت بسرعة :

-لا . لا أريد لها الذهاب معى ، لا أرغب فى صحبة النساء أبداً .

ثمّ إننى عندما رجعت إلى بيت الشهاب ، وأثناء تناولنا العشاء ، أطلعته على ما انتويته ، فلما بلغت فى الحديث مسألة ريطة ، قال لى بسعادة ، وهو يبتسم ، ما عقد لسانى، وهو أن امرأته الروايحيّة قررت تزويجه بريطة ، بعد ما سألتهَا فلم تمانع .

أصرّ الشهاب الحلاج ألا أغادر بغداد إلا بعد أن يعرّس بريطة ، وهكذا تريثّت وقتاً حتى ليلة دخوله عليها . وكان أن ذهبنا إلى حمّام بسوق يحيى ، وهو من الحمامات المعدودة بالمدينة ، فلما دخلناه ، وجدت أن حوائطه الداخلية وعند المغطس مكسوّة كلها بأجلّ أنواع الرخام الملون وأفضله ، وأما مغطسه فكان مربع الشكل معقوداً ومطبقاً بجامات من

الزجاج الملون ، مما يسمح للنور بالدخـول والكشف ، وكانت هناك حجرة دافئة تلى المغطس ، لا يوجـد فيها مواقد ولا يشمّ الإنسـان رائحة الدخان منها ، والماء الساخن يجـرى فى قناة تجعل المكان دافئاً لطيـفاً ، وكان هناك مكان آخـر يدخل منه الماء البـارد كـذلك ، ثـم إننا خـرجنـا من مكان الاستحمـام إلى مصاطب مكسوة بالرخام يقال لها الأواوين ، وكنّا جـميعاً مؤتزرين فاسترحنا قليـلاً ، وتأهّبنا للاستحمام الثانى ، فدخلنا بيت الحرارة وهو الموضع الذى تكون فـيه حـرارة الماء على أشـدّها ، فتـركنا الشهـاب للمـدلـك حيناً ، حـتى انتـهى منه وغسلـه بـالمـاء الساخن الذى يوجـد بمغطس ، وخلال ذلك رحنا نداعبه ونهزر مـعه ، وقد تعجّبت من الكلام الصريح الذى تبادله الشهاب مع رفـاقه ، دون خجل أو حياء ، عن النكاح والشهـوة وطرائق المجامعـة ، ومالسوف يكون عليـه حاله مع ريطة ، عند دخوله عليها .

كان الشهـاب لم ينجب من امرأته الروايحية ، وقد خـشى على نفسه من انقطاع الذرّية وضعـف الباه ، بعد أن عـاشرها سنيناً بعد مـوت امرأته الأولى ، زمن تفشى مرض الطاعون الدّملى الذى اجتاح المدينة ، ودون أن يعقب من هذه المرأة ، وقـد تعجبت من الحمّامى ، الـذى راح يزيل الشعر من بعض المواضع بجسد الشهاب ، إذ شارك فى الحديث وأفتى ، حتى أنه نصح الشهاب أن يكون معتـدلاً فى الامتلاء قبل الجماع ، لأن الجماع على شبـع يولّد وجع المفاصل ، والنقـرس ، والدوالى ، والفـتوق ، والأورام الخبـيثة ، والجـماع على الجوع يضـعف البصر ، وينـهك البدن ، ويجلب الخفقان ، واليرقان ، والسل ، وحمى الدق ، وعقب أكل السمك أو اللبن ، يورث الفـالج ، وبعد الحـوامض يضـعف العـصب ، ويورث الرعشـة ، وأجود أوقـاته النصف الأخير من الليـل وقد انهضم الطعـام وسخن باطن الرحم ؛ وقـال إن الشهاب سـعيـد الطالع ، لأنه سيـدخل علـى عـروسه

والقمر فى حال اتصـال بالزهرة ، وإن اللذة ستكون عظيمة ، لأن الوقت هو وقت البروج الهوائـيـة ، ووقت الميزان ، لأنه لا يجوز الجمـاع والقمر فى الترابيّة ، ولا فى الاحتراق ، ولا قرب مفارقة الشمس ، ولا عند الاتصال بزحل والمريخ ، وكـان من الموجودين مـعنا واحـد من أصحـاب الشهـاب يدعى خليل النسّاج فتكلم فى أمر بدا غريباً ، بالنسبة لى ، إذ أشار إلى أنه كثيـر العزل مع امرأته ، وهو يخشى أن يصيـبه مكروه بسبب ذلك ، وإنما هو اضطر لذلك بسبب تحرّجه من كثرة الأولاد ، والاحتراز من الحاجة إلى التعب فى الكسب ، ودخول مداخل السـوء ، وكان المزّين قد جـاء ليستلم الشهاب ، وحضر هذا الكلام ، فقال إنّ العلمـاء اختلفوا فى إباحته وكراهتـه على أربعة مذاهب : فمن مبيح مطـلقاً بكل حال ، ومن محرّم بكل حال ، ومن قائل يحلّ برضاء المرأة ، ولا يحلّ دون رضـاها ، ومن قائل يباح فى المملوكـة دون الحـرّة ، لكنه من الآداب أن لا يعـزل بل لا يسـرح إلا إلى محل الحرث ، وهو الرحم ، وإنه سمع كلاماً من شيخه بخصوص هذا ، ومنه أن الولد يتكوّن بوقوع النطفة فى الرحم لأربـعة أسباب هى : النكاح ، ثم الوقاع ، ثم الصـبر إلى الإنزال بعد الجمـاع ، ثم الوقوف لينصبّ المنى فى الرحم ، وبعض هذه الأسباب أقـرب من بعض ، فالامتناع عن الرابع كالامـتناع عن الثالث ، وكذا الثـالث كالثانـى ، والثـانى كالأول ، وليس هذا كالإجهاض والوأد ، لأن ذلك جناية على مـوجود حاصل ، وله أيضا مـراتب، وأوّل مراتـب الوجود أن تقع الـنطفـة فى الرحم ، وتخـتلط بماء المرأة ، وتستعـد لقبول الحياة ، وإفـساد ذلك جناية ، فإن صارت مـضغة وعلقة ، كانت الجناية أفحش ، وإن نفخ فيه الروح واستوت الخلقة ازدادت الجناية تفاحشاً ، ومنتهى التفاحش فى الجناية يكون بعد الانفصـال حياً .

ثم إن المـزيّن تعهّد الشهاب ، وكان رجلا خفيـفاً رشيقاً بصيراً بالحلاقة ، فشذّب شعـر رأسه ولحيته وشاربه وسوالفه بـأمـواس جيـدة ، وقـد اعتذر

لنا عن علكه لبانا بمسك لأنه أكل ثوماً وكراتاً ، وهذا مما لا يجوز بالنسبة لمن اشتغل بمهنة التزيين ، المتطلبة لطيب النكهة وحلو الرائحة .

فلما انتهينا، دفعنا لصاحب الصندوق ما علينا ، وبذلنا للقيّمين والزبّالين والوقّادين ، والسقّائين ، وكلّ من قاموا على خدمتنا فى الحمّام ، واهتمّوا بالشهاب على أكمل وجه ، ثم خرجنا بصاحبنا إلى داره ، وقد تعطّر بطيوب زكية ، وكان أن أُعدّ مجلسٍ رقص وطرب فى قاعة رحبة من قاعات الدار ، صُفّت فيها صنوفٌ عدّة من مآكل ومشارب ، فحفلت المائدة بهارونيّة لحم ، وهريسيّة ، كنت قد تذوقت مثلها ذات يوم فى مطبخ الخليفة أثناء عملى بالوقايد ، وذلك ضمن ما كانوا يقدمونه لنا من بقايا مائدة الخليفة ، فأدركت أن ريطة ربما تكون قد عملتها خصيصاً لأجل العرس ، وكنت قد استعلمت آنذاك عن كيفية صنعها من واحد من الطهاة المعدودين والمعروفين بمهارتهم فى القصر ، وهو كاظم بن سابور الطاهى ، فقال إنها تُعمل من اللحم البقرى السمين أو الضأن ، وشرطه أن يكون لحماً فتّياً، نقياً من الجلود ، والغدد ، والعروق ، والأعصاب ، طريّاً غير مفتّت ولا متغيّر الرائحة ، ثم ينقع بعد غسله فى الماء والملح ، ويُنضَج على نار هادئة حتى يذوب اللحم مع البرّ الذى يضاف إليه مع اللوز والملح والبهار والخولنجان ، وقد قال كاظم إن هذا الطعام قد ابتدع فى زمن واحد من أكاسرة العجم يدعى كسرى أنوشروان .

وإضافة إلى ذلك كانت هناك نوفرية ، ومطجّنات ، وموصليّة ، وكمّونية ، ورؤوس وأكارع ، أما الحلويات ، فقد حفلت المائدة بصنوفها كالأبهاظات ، والبرزق المطبوخ بالجبن ، والجوارش المطيّبة بالمسطكى ، والنارنج ، والعنبر ، والعود ، والحلوى المأمونية ، هى من الأكلات التى كانت قد شاعت ، واشتهرت ببغداد ، منذ أن تحكم ذلك الخليفة فى البلاد ، ذلك عدا الخراريف المشوية ، والشريد ، والأشربة المسكّرة ، والمعطّرة

بالرياحين وماء الورد ، والكشك الطيب المعمـول بالأرز والخضرة والأدهان والسمن ، المطبوخ بلحم الضأن السـمين ، على عكس كشكنا فى بر مصر ، الذى يطبخ بسمك البورى السمين ، أو ببـعض الطيور المهاجرة الحاطّة على أراضينا كالسمّان والبشروش وغيرها .

ثم أُعلنَ عن وصـول أصـحـاب الملاهـى والطرب ، فلمـا اتّخـذوا مـواضعـهم ، وبدأوا العزف بـالعيـدان ، واللعب بالنايات ، والطنابيـر ، والقـيــشـارات ، والمـزاهـر ، والكنـارات ، والنزهات ، والـصنوج ، والشقـرات ، والرباب ، والقـانون ، انتعشـت الأرواح ، ونعمت بسـحر الموسيـقى ، واستـرخت الأجسـاد لحدوث النشـوة وبلوغ المتعـة ، وكانت سعادتى لا توصف لحضور الحسين بن فالح المراغى ، الذى لم أكن قد التقيته منذ زمن طويل ، فـتعـانقنا ورحنا نتـحـادث طويلاً فى أموره وأمـورى ، وكيف سارت أحوالى بعد أن فارقته منذ خروجى من قصر الخليفة ، وبينما كّنا منشـغـلين بالكلام ، سـحـبنى الحـسين لنجـلس إلى جـوار رجل من العوّادين ، وكان العازفون قد توقفوا ليأكلوا ويشربوا شيئاً ، قبل مواصلتهم الألحان . وكنت أدرك مدى شغف الحـسين بالغناء والنغمات ، ثم إنه سأل الرجل عن عوده ، إذ رآه غريباً غير مألـوف بخمسة أوتار ، فقال العوّاد ، إنه من النوعِ الزريابىّ الذى يعزّ مثله ببغـداد ، وإن الوتر الخامس فيه ، قد أضافـه مغنّى الأندلس الأشـهر زرياب ، وإنه - أى الرجل - اشـتراه حين ارتحل ذات مرة إلى الغرب ، وكان ذلك الوتر اخـتراعاً من زرياب ، ضمن ما اخترع ، فالصنعة القديمة كانت أربعـة أوتـار تحتيماً للمناسبة العددية بين هذه الأوتار والطبائع الأربـعة ، فزاد زرياب ذلك الوتـر وصـبغـه باللون الأحمر - كما يتّضح - وجـعله متوسطاً فى موضعـه بين الأوتار الأربعة ، وذلك أن الزير ، وهو أكثـر أوتار العود حدّة ، كان يُصبَغ بـاللون الأصفر ليكون فى العود بمنزلة الصفراء فى الجسد ، وصبغ الوتر الثانى بعده باللون

الأحمر ، وهو من العود بمنزلة الدم من الجسد ، وهو في الغلظ ضعف الزير ويسمى المثنّى . وصبغ الوتر الرابع باللون الأسود ، وجُعلَ من العود بمنزلة السوداء من الجسد وسُمى البمّ ، وهو أغلظ أوتار العود ، وأعلاها من حيث الوضع ، وهو ضعف المثلث الذى عُطّل من الصبغ وتُرك أبيض اللون ليكون من العود بمنزلة البلغم من الجسد ، وجُعلَ ضعف المثنّى فى الغلظ فلذلك سمّى المثلث ، وهكذا قوبل كلّ طبع بضدّه حتى اعتدل واستوى كاستواء الجسم بأخلاطه ، فزاد زرياب هذا الوتر وقال أن أوتار العود الأربعة ، على النحو الذى جرى عليه العرف ، سايرت طبائع الجسد ، لكنها عطلٌ من النفس ، والنفس مقرونة بالدم ، لهذا وجب إضافة الوتر الخامس وصبغه باللون الأحمر ، وهو الوتر الأوسط الدموى ، ويجب أن يكون تحت المثلث ، وفوق المثنى لاستكمال قوى الطبائع الأربعة فى العود ، وليكون مقام النفس فى الجسد .

ثم إن العوّاد أبرز لنا مضراب العود وهو ريشته ، وقال إنها من قوادم النسر ، وهذا مما أشار به زرياب أيضاً، وهى أفعل وأكمل من الخشب ، إذ تجمع إلى لطف خفتها على الأصابع طول سلامة الوتر بملازمة الضرب عليه ، فتعجّبت لذلك كثيراً ، ثم إن الموسيقيين عاودوا عزوفاتهم غاية فى حسن التناغم والإيقاع ، فقامت جماعة من الحضور للرقص والسرور ، وكانوا غاية فى الظُرف وخفّة الروح، وحسن الطبع على الإيقاع ، فلما انتهوا وسكنوا ، قامت جارية سوداء للرقص ، وكانت طويلة العنق والسوالف ، حسنة الدلّ والشمايل ، والتمايل فى الأعطاف ، ودقة الخصر ، وحسن أقسام الخلق ، ومواقع المناطق ، واستدارة الثياب فى أسافلها ، ومخارج النفس ، والإراحة والصبر على طول الغاية ، ولطافة الأقدام ، ولين الأصابع ، ولين المفاصل ، وسرعة الانفتال فى الدوران ، فلم يتمالك خليل النسّاج نفسه ، وراح يغنى قائلا :

ظبــاء كـــالدنانيـــر مــلاح فى المقـــاصيـــر
جـــلاهــن الســعــانين عــلـينـا فـى الـزنانـيـــر
وقـــد زرفن أصـــداغـــا كــــــأذنـاب الـزرازيـر
وأقــــبلـن بأوســــاط كـــأوســـاط الـزنابيــر

فمـا كاد ينتـهى حتى رأيت الشـهاب يتـغيّر لونه ويسـهم ، وبدا لى متكدراً وأظن أن الجـميع لاحظـوا ذلك ، لأن اليشكـرى مال إلىّ وكـان حاضراً إلى جانبى ، وقـد دعاه الشهاب كرامة لى لما عـرف بصحبتى له ، ثم قال :

– ألم يجـد هذا الرجل غيـر ذلك ليـتغنّـى به فى هذه الليلة ، وفى عُرس الشـهاب ، ألا يعلم أن هذا الغناء الذى شـاع فى المدينة الآن إنما هو من نظم الخليفة نفسه ، وإنه سأل أحمد بن صدقة الطنبورى أن ينشده له يوم السعانين ، وهو عيد للنصارى يعملونه كل عام فى المدينة . وكانت بين يدى الخليفـة عشرون وصيفة رومـية مجلوبة ، وقد تزيّنّ بالديبـاج الـرومىّ وعلّقن فى أعنـاقهن صلبان الذهب ، وفى أيديهنّ الخوص والزيتون ، فقال فـيهن الخليفة ما قال ، أو لا يعلم هذا الأحمق أن الشـهاب مـن الكارهين للخليـفة ، لأن أهله من السواد بقرية من الـقرى المحيطة ببغداد ، وأن جنود الخليـفة قد جـاروا على أرض وزرع لهم ، وسرقـوا دواباً تخصـهم ، دون أن يُفـعل لهم شيـئاً ، أو يعـاقبـوا على هذا الإثم الشنيع، ويقـال إن الشهـاب – والله أعلم – بات ينتـسب إلى جماعـة من الجمـاعات المناهضة لبنى العباس ، وقد يوبّخونـه على ذلك الغناء ، فلا بد أن يكون بعضهم هنا بين الحاضرين .

دهشت من ذلك الكلام وكنت أسمعه لأول مرّة ، فهذا الأمر عن الشهاب لم أعرفه أبداً ، رغم معاشرتى له ، وإقامتى فى بيته منذ خروجى من قصر الخليفة ، صحيح أننى لا أذهب إليه بعد مغادرته فى الصباح الباكر إلا لأبيت فى الليل ، لكننى لم ألحظ عليه أمراً يدلّ على أن له جماعة تناقض دولة الخليفة ، وإن كان يبدو لى متذمراً ، متبرّماً ، مما يحدث فى البلاد ، وفى مرّة سألته عن حقيقة الفارس ذى الرمح المنتصب على قبّة السور ، فضحك وقال : « إنه يتجه الآن بسهمه إلى البذّ بخراسان » . فلم أفتهم ذلك وقتها ، لكننى علمت بعد ذلك ، من اليشكرى ، أن البذّ هى بلد واحد من الخارجين على الخليفة إسمه بابك .

لم أعلّق على ما همس اليشكرى به فى أذنى ، وقلت لروحى : فى بغداد كل شئ جائز حتى نكاح العجائز ، وهذه مدينة الغرائب والعجائب ذات الألف وجه ، والتى كلما ظننت أننى أعرفها وخبرتها وكشفت كل وجوهها ، إذ بها تسفر لى عن وجه جديد لها .

كان رأسى قد بدأ يدور وقد شربت شيئاً مما يُسكر مجاراة للجميع ورغبة فى إبراز المرح والسرور ، فبقيت ساهماً متفكراً بينما عيناى تتابعان الراقصين ، ورقصهم المستعر ، وصخبهم ، خصوصاً عندما بدأوا يرقصون نوعاً من الرقص العجمى ، كان قد شاع فى بغداد ، يسمى الدستنبد والإيلا ، وكنت حينئذ أفكر فى آمونة ، وسويلا ، وريطة ، وما كان من أمرهنّ معى ، وكان هجسى بريطة يأكلنى من الداخل ، وقد تساءلت عما سيفعله الزمان بها بعد ذلك ، خصوصاً بعد ما سمعته الآن عن الشهاب الحلاج ، وتبدّل أيامها من حياة العزّ والقصور ، إلى حياة الرعيّة ، وتواضع الدور ، فها هى خرجت من قصر لتستقر فى ربع ، وكانت ذات يوم جارية مرغوبة ، فصارت الآن ضرّة منكوبة ، ورحت أسائل نفسى : هل جنيت عليها يوم وضعنى القدر فى طريقها ، فربط مصيرها بمصيرى

بعد ما جرى فى قصر الخليفة ، أم كان ذلك مقدّراً مكتوباً فى لوحها المحفوظ قبل أن تولد ، فتحتّم عليها الخروج من رقّ الغنى إلى حرّية الفقر ، ومن ذلّ القصور المنسوج بالذهب والفضة ، إلى كرامة الستر ، وتواضع العيش .

خرجت من بغداد بعد ذلك بأيام ، بعد أن رتّب الشهاب كل ما يتعلّق بأمر خروجى ، فكانت مغادرتى المدينة وقت اقتران الرأس والمشترى كما قال لى ، وكنت قد ذهبت إلى زاوية شيخى وصلّيت ركعتين ، ودعوت الله تبارك وتعالى أن ييسر لى أمرى ، وكان اليشكرىّ فى وداعى ، وقد أهدانى قميصين وبدنة بغدادية ، لم أر أجمل منها ، لأرتديها وقت السفر فشكرته بعد أن اعتنقنا طويلاً ، ثم ركبت راحلتى وكانت بزدوناً عفياً ، قدّمه لى الشهاب ، وقد أعطتنى امرأته الروايحيّة عطوراً فى قوارير زجاجية عدّة ، كى أهديها لمن أشاء أو أتريح بها ، وقد انتفع ببيعها إذا ما اضطررت أثناء الطريق .

كان بجيبى دراهم قليلة وكنت قد دفعت معظم دراهمى التى اكتسبتها أثناء اشتغالى فى الوراقة ، والتى كنت أدّخرها لدى امرأة الشهاب ، إلى صاحب القافلة التى ستؤمّن رحلتى وذلك قبل خروجى من المدينة . أما ريطة فقد زوّدتنى بكعك السميذ ، وهو نوع من الكعك الجاف الملائم للسفر ، وتمّنت لى كلّ خير وراحت تدعو اللّه طويلا أن يشملنى برعايته وبكل أمان وتوفيق .

ظللنا سـائرين لمدة يومين بعد خـروجنا ، لم تتوقف خـلالهما الـقافلة إلا للراحة أوالنوم ، حتى بلغنا مدينة القدس ، فلما نظرتها وجدت أنها مدينة مشيّدة على جبل ، وكانـت الأمطار وقت وصولنا تهطل بشّدة ، فقالوا لنا أن هذا دأبها فى القـدس ، وكان الغرض من دخـولها هو أن يطرح بعض التجـار الذين فى القافلة جـانباً من تجـارتهم وبضائعهم فـيهـا ، فلما أذن الحّراس لنا بالولوج إلى داخل المدينة قاصدين أسواقـها، سيّرونا إلى موضع يُطلق عليه : الأسواق الثلاثة ، بالقـرب من باب المحراب ، وكان به سوق للعطارين وآخر للقماشين ، ثم إننا عبرنا القيساريات ، والخانات ، والرباع التى فوقـها ، ثم الفنـادق ، حـتى وصلنا إلى خان كبـير مبنىّ من الحـجر الوردىّ الجمـيل ، وكان يتوسطه فناء علـى هيئة رواق مغـطّى ، فنزلنا إليه وعقلنا دوابنا ، وكـان هذا الخان كما عـرفت بعد ذلك يسمّى خـان الفحم ويقع فى الشارع الرئيسىّ من المدينة ، المسمّى بخطّ داود عليه السلام، وهو الشارع الأعظم وابتـداؤه من المسجد الأقـصى من عند باب السلسلة ، إلى باب المحراب ، وهو باب المدينة المعروف بباب الخليل .

وكنت خلال الطريق قد تعرّفت علـى رجل يتاجر بالبهـار ، وبدا لى من أفضل الناس وأحسنهم خلقاً ، وكان سـبب ذلك أنه فى مبتدأ الأمر ، وأثناء وقوفنا للراحة فى قـرية من القرى ، التى كنا نتوقف عندها بين الحين والحين ، على الطريق الخارجة من بغداد ، كنت ألاحظ أن الرجل كثيراً ما ينظر إلىّ ويتـفحصـنى ، فكرهت ذلك منه ، وتمللت وقد اسـتـربت به ، فبادرته بالقول :

- يا شيخ قد ألححت فى النظر ، أعرفت شـيئاً عنى فأنكرته . قال لا والله ما عرفتك قبل رحيلنا هذا ،ولا أنكرك ، ولاسوء أراه فيك ، لكننى رجل حسن الفـراسة فى الناس ، جيّد المعـرفة بهم ، وإنك ذاهب للبحث عن إنسان عـزيز على نفسك ، ولسوف تبذل جهـداً ووقتاً

حتى تجده ، وهو جدّ مريض ، وقد تدركه أولا تدركه ، فهذا أمر لا يعلمه إلا اللّه ، لكنّك فى طريقك إليه سوف تواصل مسيرك الذى بدأته ، ولن تعود منه أبداً ، فتعجّبت لذلك كثيراً ، وإن كنت انقبضت ، وخشيت أن يكون قد حدث مكروه لعزيز عينى ثاونا ، فلما سألته كيف تفطّن إلى هذا ، أمسك ، وبدا وكأنه متمنّع عن البوح بأمره لمن هو مثلى ، فداخلنى ضيق وقد كرهت استعلاءه ، فألححت عليه وقلت :

- إن ما أفضيت به إنما هو من قبيل الشعبذة والخرافة ، فلا يعلم الغيب إلا اللّه ؛ ألم تقرأ الآية الكريمة " كذب المنجمون ولوصدقوا "؟! فردّ بسرعة ، وقد أدرك ما بباطن كلامى : لا . لست منجماً والله ، والفراسة علم وبحر ، ألم تسمع ما فاض به الشيخ الفيلسوف عن ذلك إذ قال : " وإن البصر البرانى ، لا يرى المحسوسات إلا حين تنقشع الظلمات بنور الشمس ، وإلا حين تختفى الحواجز التى تفصل بين البصر وموضوعاته ، كذلك البصر الجوّانى ، ليس فى مقدوره أن يدرك العالم الروحانى ، إلا إذا تطهّرت مرآة القلب من الشهوات ، التى تمنع انعكاس النور الإلهى " .

ثم أضاف :

- لقد قرأت ما أنت مقبل عليه بالفراسة ، وقد لاحظتك وراقبتك أثناء الطريق ، وخبرت شدّة صوتك وضعفه ، ونزوع رقبتك وحركتها ، ورسم أنفك وعينيك ، وأحوال شعرك ، ورائحة بدنك ، وحالة أسنانك ، وصورة يديك وقدميك ، وما عليه حال أظافرك وأصابعك .

فتعجّبت لكلامه كثيراً، وتذكرت أن شيخاً من أحناف حرّان قد أتى إلى دكان العفيف ذات مرة طالباً نسخ كتاب وصفه بأنه عزيز ونادر ، وقال إن الخليفة

منذ زمن كان قد طلب من أكبر مترجميه العثور على نسخة منه وترجمته إلى العربية ، لما به من فوائد حكمية وثمار معرفية ، وأن المترجم ذهب مرتحلاً بنفسه إلى بلاد اليونان ، فيما وراء البحر الرومى ، وعثر على الكتاب وكان اسمه سرّ الأسرار ، وهو من وضع حكيم قديم ، يدعى أرسطو ، لملك من أشهر الملوك ، وكان ذلك فى معبد من معابد الوثنية هناك وهو معبد الشمس ، وإن هذا الكتاب منحول عن قرطاس قديم لهرمس الأكبر المعظم ثلاثاً . وإن الرجل عثر على قرطاس عليه الكتاب بالفارسية فترجمه عنها .

أثناء مبيتنا بالخان أنبأنا رجل هبط المدينة ، وكان ببلاد اليونان ، أن نيقفور ملك الروم زحف إلى بلاد البلغار وحاصر عاصمتهم ، ودوّخها ، وخرّبها ، وقتل خلقاً كثيراً ، وبلغت منه الفظاظة أنه جعل يسطّح الفتيان على الحضيض ، ويطأهم بالجراجر .

ثم إننا بعد ما جن الليل ونمنا ، تنبهنا جميعاً على صوت ضحك عال وقهقهات زائدة عن الحدّ ، فقمنا نستجلى الأمر ، فإذا بواحد من التجار قد انتابته نوبة ضحك ، لا يستطيع السكوت عنها أو الفكاك منها ، وعجزنا عن إسكاته بكلّ الطرق والحيل ، بما فى ذلك الزجر ، والشتم ، والضرب ، وصبّ الماء ، والإيلام بالوخز ، واللطم ، والقرص ، وقراءة الآيات الرادعة ، وقد ظنّ البعض أنه أصيب بمسّ من شيطان ، وما لبث على هذى الحال ساعة إلا ومات ، فارتاب بعض الشيوخ الذين كانوا معنا فى الأمر ، وكان مع الرجل عبد حبشىّ أسود ، فأخذوه للتقرير ، وراحوا يسوطوه بشدّة بعد توثيقه ، حتى أُدمى ولم يستطع مناهضة الألم ، فأقرّ أنّه سقى الرجل سُمّاً يسمّى السم الضَحّاك ، فلما أراد هؤلاء الشيوخ الوقوف على كنهه ، أخبرهم أنه أخذ من القرنفل عشرين درهماً ، ومن الدار صينى مائة درهماً ، ومن الزنجبيل خمسين درهماً ، ومن الفلفل

خمسين درهماً ، ودقّ ذلك كله دقاً ناعماً ، ثم ألقى عليه وزن خمسة أرطال من الماء ، ونقعه يوماً وليلة ، ثم أخذ من الزعفران وزن رطل ودقه دقاً ناعماً ، ونقعه فى الماء ، الذى هو خمسة أرطال ، مخلوطاً بالأجزاء السابقة ، وتركه أيضا يوماً وليلة ، وبعد ذلك مرسه ، ثم تركه حتى صفا فوقه ماؤه ، ونقع فيه من زعفران آخر ربع رطل ، وتركه يوماً وليلة ، وهكذا إلى ثلاث مرات حتى صار سُمّاً قاتلاً ، وإنّه أعطى المغدور منه وزن درهمين ، وقت عشائه ، بعد أن خلطه بعسل، وكان من عادة سيّده شرب العسل المخلوط بماء بعد صلاة العشاء ، وكان ذلك كلّه بسبب أن الرجل هدده أكثر من مرة بخصيه ، بعد أن اتّهمه بالتقاعس عن العمل ، وإنه كان يخشى أن يقوم سيّده بذلك كثيراً ، وخاف أن يفعل ذلك عندما تهبط القافلة إلى مصر .

فلما جاء النهار أخذوا الخادم وسلّموه إلى متولّى الدرك بالمدينة ، أمّا الميت فقد صبرنا عليه حتى جلبنا من السوق كفناً له ، فغسّلناه ، وكفنّاه به، ومضينا به خارجين من الخان حتى مسجد المدينة الأعظم ، فصلّينا عليه ، وواريناه فى مقبرة بالقرب من المسجد ، أما تجارته فقد حصرناها ، وبقيت وديعة لدى صاحب الخان ، حتى يطير البرق إلى ذويه .

لم أكن قد رأيت مسجداً بعظمة المسجد الأقصى ، فلما خرجنا من المقبرة استأذنت من كانوا معى أن أتركهم ، وعدت إليه لأجوب فيه وأشاهده بتمعّن وتمحيص ، وقد تأكّد لى أثناء ذلك أنه من المساجد العجيبة ، الرائعة ، فائقة الحسن ، وهو ذو أبواب كثيرة فى جهاته الثلاث ، والمسجد كلّه فضاء ، وغير مسقف إلا من عند نهايته ، على الغاية من إحكام العمل وإتقان الصنعة ، مُمَوّه بالذهب والأصبغة الرائقة ، وصحنه طويل عريض ، طوله أكثر من عرضه ، وهو فى غاية الحسن والإحكام ، مبنىّ على أعمدة الرخام الملوّنة والفسيفساء التى لم أر أحسن

منها ، ولا حتى في كنيسة أنطاكيـة ، وفى ذلك الصحن مصطبة كبيرة فى ارتفاع خمسة أذرع يُصْعَد إليها من عدّة مواضع بالدرج ، وفى وسط هذه المصطبة قبّة عظيمـة مثمّنة على أعمدة رخام مسقّـفة برصاص ، منمّقة من الداخل والخارج بالفسيفساء ، مُطبّعة بالرخام الملون ، وفى وسطها الصخرة التـى تزار ، وعلى طرفـها أثر قدم النـبى عليه الصلاة والسـلام ، وتحتـها مغارة ، ينزل إليها بعدّة درج يُصلّى فيها ، ولهذه القبة أربعة أبواب ، وفى شرقيـها ، خارج القبّة ، قبـة أخرى على أعمدة حسنة ، يقولون إنهـا قبّة السلسلة ، وقبّة المـعراج أيضا على المصطبة ، وكذلك قـبة النبّى صلى الله عليه وسـلم ، كلّ ذلك على أعمـدة مطبّع أعلاها بالرصـاص ، هذا وقد حفرت فى أرض المسجد أحواض وصهاريج كثـيرة ، فإن المسجد مُشيّد كله على صخرة يتجمّع فيها ماء المطر ، فلا تضيع منه قطرة وينتفع به الناس .

ظللت أطوف بالمسـجد حتى مـا بعد صلاة العـصر ، فلمـا توضأت وصلّيت وحـمدت اللّه ، انصـرفت إلى جوار حـائط من الحوائط بصـحن المسجد ، فجلست وكنت قد تعبت من كثرة التجوال في الجامع ، ومما كان من مسيرنا إلى المقبرة ، مع عدم كفايتى من النوم فى الليلة الفائتة ، وبقيت وقتاً متـأملاً أحـدّق فى السموات المفتـوحة فوقى ، والأرض الظاهرة على البعد أمامى ، بمروجهـا ، وزروعها ، وتلالها ، ومنازلها ، ورحت أتفكّر فيما قاله شيخى ذات يوم وهو يحدثنا عن يقينه ، إذ قال :

- وجدت الحـرّ مضاداً للبـرد ، ووجدت الضـدّين لا يجتمـعان فى موضع واحد من ذات نفسيها ، فعلمت من وجودهما مجتمعين أن لهما جامعاً جمعهما ، وقاهراً قـهرهما على خلاف شأنهما ؛ وما جرى عليه القهر فضعيف ، وضعفـه ونفوذ تدبير قاهره فيه دليل على حدثه ، وعلى أن له مُحدثا أحدثه ، ومخترعاً اخترعـه ، لا يشبهه ، لأن حكم ما أشبهه حكمه فى دلالته على الحدث ، وهو اللّه رب العالمين .

وبقيت على هذى الحال وقتا أتأمل الكون وعظمته حتى استرخت أعضائى ولانت ، وضعفت ملكاتى ، وتشوش صفاء تنّبهى ، فحدّثتنى نفسى أن أستسلم إلى ما يلزمنى من وجبة نوم ، تعيننى على ما تبقى من النهار ، وما قد يكون فى الخان بالليل ، وبقيت وقتاً مفتوح العينين ساكناً ، أحدق فى السماوات المفتوحة فوقى وأتأمل عظمة الخالق ، وقد لّفنى نسيم رطيب أنعش روحى ، وسكّن حواسى ، وشيئاً فشيئاً وجدتنى أدخل فى نوم هانئ رضىّ ، ولا أدرى كم لبثت من الوقت على هذى الحال ، إذ أفقت على حلم لا أدرى أكان رؤيا ، أم كان ما رأيته هو رؤية الحقيقة والعيان ؟! إذ وجدت عزيز عينى ثاونا ، وقد جاءنى على الهيئة التى رأيته فيها من قبل ، أثناء اختبائى فى الأراضى الموحلة ، وهو واقف على عُلّيّة وبيده نقف ، ويقول لى بوجهه النورانى الطيّب :

- لم السرعة ؟! ابق فى مدينة الأنبياء حتى تشبع روحك ، وتُعمّر بالإيمان ثم تعال . . سأنتظرك حتى تجيء .

بقيت فترة واجماً حائراً . . لا أصل إلى يقين حول ما وقفت عليه ، ورؤيتى لثاونا ، ثم إن الله هدانى إلى أمر ، وفتح لى فتحاً مبيناً ، إذ قرّ أمرى على عكس ما كنت انتويته وعزمت عليه ، قمت بسرعة ، وذهبت إلى الخان ، وهناك التقيت رئيس القافلة ، فأنبأته أننى لن أرحل معهم فى صبيحة اليوم التالى ، وسأبقى وقتاً فى مدينة الأنبياء هذه ، ثم إننى جمعت حوائجى القليلة وخرجت بعد توديعى لكل من كانوا معى ، وبينما أنا خارج إذ التقيت على الباب الفَرّاس الذى كان قد كلمنى من قبل ، فلما أخذت فى توديعه نظر إلى قليلاً ، ثم قال :

- ألم أقل لك إنك ستمضى فى طريق لن تعود منه أبداً.

سُحتُ فى القدس زمناً ، ومرّت علىّ شتاءات وراء شتاءات ، وأصياف وراء أصياف ، وقد تعوّدتنى المدينة مثلما تعوّدتها ، فصرت أبيت

فى الجوامع حيناً ، وفى الأسواق حيناً ، وفى براريها أو بساتينها حيناً آخر ، وقد أخذتنى المدينة ، كما لم تأخذنى مدينة أخرى من قبل ، وبتّ لا أستطيع البعد عنها ، وكأن روحى لا تعرف موضعاً فى هذه الدنيا كلها لتستريح وتطمئن إلا فيها .

كنت أنصرف إلى الكنائس أياماً وإلى المساجد أياماً أُخر ، أو أصعد لقلعة فأنصرف إلى الجانب الغربى من سورها ، إلى محراب داود بقلب الجامع المبنى هناك ، وأبقى فى المرتفع الذى يُطلع إليه بدرج ، حيث مكان جلوس النبى داود عليه السلام ، وأظل وقتا أنظر من الطاقة الحجرية الكبيرة حيث أثر مرفقه الغايص فى الحجر ، وأتعجب لتلك البلاطة التى طبع عليها المرفق ، أما كنيسة القيامة والتى عماراتها من العجائب المذكورة ، فطالما كنت أذهب إليها بين الحين والحين وأنظر موضع جلوس السيّد على الحجر ، والموضع الحجرى الذى سِيط وجُلد وتعذَّب فيه عليه السلام ، وكذا السجن الذى وضِع فيه ، وكنتَ أبقى حتى يأتى واحد من آل نسيبة أو آل جودة ، وهما عائلتان من عائلات المسلمين كان منوطًا بهما فتح وإغلاق الكنيسة ، وحفظ مفاتيحها .

صرت أتعيّش بما يقدمه لى الناس من صدقة وإحسان ، وقد انصرفت فى جلّ وقتى إلى الصلاة والتعبّد ، وفضلت السياحة على سواها من أمور الدنيا ، فكنت أنحدر حيناً إلى دير المصلّبة ، وهو دير رومى قديم البناء بالحجر والكلس ، مُحكم الصنعة مونق البقعة فى بحيرة من أشجار الزيتون والكروم والتين، بإزاء قرية تجرى على الدير ، وكان بداخل الدير صور يونانية غاية فى حسن التصوير ، وتناسب المقادير ، وأذهب حيناً آخر إلى نشز عال مشرف على غور أريحا ، به دير يُسمّى دير السيق ، وهو مطلّ على تلك البسائط الخضر ، ومجرى الشريعة ، فكان يتلقّانى هناك رهبان ظُراف أكياس ، فيقدمون لى مما عندهم من خبز وفاكهة ، ويتركوننى

أنصرف إلى التأمل أو الصلاة ، وبقعتهم لا يأتيها إلا قاصد لهم ، أو مَارّ في مزارع الغور تحتهم ، وفوقهم الطريق الآخذة إلى الكثيب الأحمر بعد ذلك .

وقد حدث أنني كنت في واد يسمى وادى اليوسيفات ، وبه عين ماء ، فوجدت جماعة من النساء قد جئن وبينهن امرأة شابة من أجمل خلق الله ، ثم أنهن دفعن بالمرأة إلى العين فقذفت ببعض من أثوابها إلى الماء ، وشربت منها ، فلما فعلت ولبثت واقفة على رجليها ، هللن جميعاً ، وزغردن ، وقلن أنها طاهرة بريئة ، فتعجّبت لذلك واستجليت الأمر ، فعرفت أن ذلك النبع يسمى نبع العذراء ، أو نبع النساء المتّهمات ، فأى واحدة تتّهم في شرفها يؤتى بها إلى هذا الموضع لاختبارها ، فمن تشرب من ماء العين وتموت تكون خاطئة ، أما إذا كانت بريئة فلا تصاب بأى أذى أو ضرر ، ويقال إن السيدة مريم عليها السلام قد قبلت الاختبار ، وشربت من ماء هذى العين ، فبرهنت على طهرها فلم تطعن وتموت ، ومنذ ذلك الحين والنبع يحمل اسمها .

لا أدرى كم من الوقت مرّ بى وأنا فى مدينة الأنبياء ، ولقد مرّت أيام وشهور وأنا اسوح فيها هنا وهناك ، وقد صفت نفسى بها ، وهنأ عيشى بربوعها ، على رغم أننى كنت بلا عمل ، أتعيش من ثمار البرارى ، وأشرب من مياه الينابيع ، وأتقّوت بما يجود الناس على به ، بين الحين والحين ، دون أن أسألهم أو أطلب منهم شيئاً ، فلقد كنت أذهب إلى سوق اللحم أو سوق الخضار بالمدينة ، فأطلب ببعض من الدريهمات التى معى شيئاً مطبوخاً ، أو مشوياً آكله ، فأجد من يقدمه لى وهو يدفع بيدى رافضاً أخذ الثمن ، ومرّة رفض صاحب دكان أن يأخذ منى أكثر من دانق مقابل صحن مملوء بخبيصة لحم وخضار ، وكنت أتعجب لأن مطاعم السوق تكثر هنا فى القدس ، وتشيع عادة الأكل فيها بين الناس ، على عكس بغداد التى قلما يأكل الناس فيها خارج بيوتهم .

ثم إنه حدث لى أمـر غاية فى الغرابة والتوفـيق ، وبدا لى أقرب إلى الخيـال منه إلى الحقـيقـة ، فبـينما كنت سـاهراً ذات ليلة فى زاوية الهنود الواقعة إلى جانب باب السامرة ، وبعد أن أنهيت مع جماعة من الدراويش وصلة ذكر وإنشاد ، أعقبناها برقص للحبيب على دق المزاهر ، وبلغنا حالاً من النشوة وشـدّة الوجد فتـحتمت الدوسة ، فما كان إلا أن تمددنا جـميعاً على الحـضـيض ، شاهرين كل سـلاح نتـسلح به من سـيف ، ورمح ، وخنجر ، وسكين ، ثـم جاء الشيخ الرئيس الواصل ، وقـد تجلّى وانجلى وأطلّ فأشعّ ، وعكف فكشف ، وسار بفرسه واطئاً جسومنا ، ورماحنا ، وسـيـوفنا بالحـوافر ، ولسـاننا يلهج بذكـر الجـلالة ، وقلوبنا تدّق بحبّ الحبـيب ، حتى واعدنا فـغبنا ، فمـا أن قمنا حتى ظـهر على باب الزاوية رجل مشعّث مغـبرّ يدخل إليها وهو فى حالة شديدة مـن الضعف والإعياء طالباً إغـاثته بشربة مـاء ، فلما هرعنا لنجـدته جميـعاً وسقيـناه تبيّنت أنه اليشكرى الأبرص ، فلم أتمالك نفسى وارتميت عليه أعـتنقه وأقبّله ، شاكراً الله على لقـائى به مـرة أخـرى فى هذه الدنيـا ، ثم إننا أطعـمناه وتركناه يستريح حتى يستردّ أنفاسه ، فلمـا تحسّنت حالته خرجنا سويا إلى البساتين التى بظاهر المدينة ، وتخيّـرنا موضعـاً من المواضع فـيهـا ، ورحنـا نحكى لبعضنـا البعض ما جرى لنا بعد افـتراقنا فى بغداد ، حتى طلع الفجر علينا ولاحت أنواره الربّانية ، فقال لى اليشكرى إن الشهاب الحلاج قد ارتحل مع امرأتيه إلى مدينة مرو ، وهى بلدة امـرأته الروايحية ، بعد أن ضاق العيش به فى بغداد ، وأن الخليـفـة مات ، وجـاء بعده خليفـة آخر ، وهو ظالم جـاهل من أرباب السـيف والرمح ، ثم إن الزطّ وهم من الهنود الـغجـر المتوطنين بالسواد فى نواحى البصرة مـا بين النهرين ، ثاروا ثورة كبيرة ضد الخليفة الجديد ، بعد أن ضـاق بهم الحال طيلة العام المنصرم دون جدوى ، وإنه استعمل ضـدهم جماعة من المصريين ، الذين كان الخليـفة السابق قد وضعـهم فى أنطاكية ، وذلك بعد أن استجلبهم إلى بغـداد لمحاربة هؤلاء

الزطّ ، بسبب أنهم كانوا يطوفون ببحيرات يصبّ فيها الفرات ودجلة ، ولا يستطيع جنود الخليفة الدخول إليها ومقاتلتهم ، لأنهم كانوا يحاربون وهم في قواربهم ، فقاتلوهم بالمزاريق وبعجوهم ، فالتفّ عليهم الأقباط وأمسكوهم ، وأمسكوا أهاليهم ، وانقضى أمرهم فساقهم عجيف ، متولى العسكر لقتالهم من قبل الخليفة ، إلى بغداد ، بعد أن طلبوا الأمان فأمنهم، وكانوا يعدّون ما ينيف عن الخمسة والعشرين ألفاً ، بين رجل وامرأة وصبى ، فجعلهم في السفن ، وأقبل بهم حتى نزل الزعفرانية ، وقد خرج كثير من أهالى بغداد لمشاهدتهم ، وكنت منهم ، وكانوا في زواريقهم وعلى هيآتهم في الحرب ، معهم البوقات ، وكان عجيف قد وصل بهم الشماسيّة ، فبقى الخليفة في سفينة يقال لها الزو حتى مر به الزط ، على تعبئتهم ، ينفخون بالبوقات ، فكان أولهم في القفص وآخرهم بحذاء الشماسيّة ، وأقاموا في سفنهم ثلاثة أيام ، ثم عبر بهم إلى الجانب الشرقى وذهب بهم إلى بلدة تدعى خانقين ، وقيل إنهم سوف ينقلون منها إلى موضع آخر بالثغر يسمى عين زربة ، فلما سمعت ذلك ، دقّ قلبى دقاً عنيفاً ، وقد أُخذت بما قال، وتذكرت بخنس بن أيوب ، وحيرتى مما يمكن أن يكون قد جرى له ، وعدم وقوفي على حاله منذ مفارقتى إياه في شاطئ الفرما ، وكذا كل الذين كانوا على السفن عند خروجنا من برّ مصر ، وبقوا سالمين حتى دخلنا أنطاكية وتمّ فرزنا هناك ، وكنت قد علمت أن كثيراً من الناس ممن لم يباعوا من أهل البشمور ، قد وُطّنوا بأمر الخليفة على جانب من بحيرة أنطاكية ، في منطقة المستنقعات التى بشمال المدينة ، لتشابه ما خلق اللّه من أراضيها مع كور البشمور .

قلت بلهفة متسائلاً :

- والأقباط ؟، قل لى باللّه عليك، ماذا كان من أمرهم؟ نظر إلىّ اليشكرى بدهشة وكأنه استغرب سؤالى ، أو استنكره ، وبدا

لى وكأنى سألته عن أمر لم يكن قد خطـر على باله أو فكّر فيه من قبل ، فـقال بينما هو يخـلع عمامـته وبعيـد جدل ضفـيرة شعـره الأسـود الحـريرى ، وقـد التمع على ضـوء الشمـوع القليـلة الـتى أوشكت على الذواء.

– الأقبـاط ؟! قلت لك إن الخليفـة استخـدمهم فى مـحاربة الزطّ ، لكنى لا أدرى من أمرهم شـيئاً . ربما ظلّـوا فى مواضع الزط التى رُحّلوا عنها ، يشتغلون بما كان يشـتغل به هؤلاء من صيد الأسماك ، وتربية الجاموس ، وعمل الملح ، ولمّ روث البهائم لعمل الوقايد ، وتغذية أرض الزراعة ، ربمّا حلّوا محل الزطّ فى الوحلات والمواضع التى حول البصرة ، كواسط ونجيدا وصافية .

ثم إنه بدا كمن استدرك أمراً ، فقال مازحاً :

– لكنّ سؤالك عـجيب ، لا أحـد فكّر فى أمر الأقـباط ! أرغم كل الذى جرى لك ، ورغم كل ذلك المكوث فى بغداد ، وإسلامك ، تفكّر فى الأقباط ؟! والله يبدو أن بداخلك قـبطياً ، أو فرعوناً من الفراعين فى الحقيقة ، إن ذهنى لم يتطرق إلى التفكير فى ذلك من قبل .
ثم إنه ضحك ، وقال :

– فى أنطاكـية . فى مـصر . فى الشـام . فى بغداد، كلهـا أرض الله وبلاد الخليفة ، كلنا عبيد الله؛ لا أظن أن مكروها لحق بهم ، ولو كان الأمر كذلك . لما كان الخليفة قد اسـتخدمهم لمحاربة الزطّ ، وما يقع لهم يقـع لسـواهم ، سواء فى بغـداد أو أنطـاكـيـة ، أو مـرو ، أو خراسان ، أو مصـر ، أو ما يقع لكل من لا حيلة لهم فى هذه الدنيا ، ولا قدرة لهم مع أهل القوة وأصحاب السلطان .

ثم إنه سهم ببصره طويلاً ، وقد تلبّـدت عيناه بغيوم غم وضيق ، ثم صرخ صرخة عظيمة فجأة ، وصاح : يا حبيب . . يا مجيب .

رحت أمد بـصرى إلى الأفق القـدسى أمامى ، مـتطلعاً إلى نجـمات أشعّت علينا مـن السـماء ، أفكّـر فيمـا قـال ، وضيـق يداخلنى ، إذ أن ما أجابنى بـه لم يشف غليلى ، ولم يردّ على سؤالى ، فبقـيت ساكنًا فى موضـعى ، بينمـا قلبى ينفطر على بخنس بن أيوب ، وكـنت أتـساءل : تُرى ، هل وصل سالماً إلى أنطاكية بعـد فراقى له فى الفرما ، وجُلب مرة أخرى إلى بغـداد لمحاربة الزطّ ، أم بيع فى سـوق النخاسـة بالشام ، أم لقى حتفه وقُبر بمياه البحر الرومى التى لا منتهى لها ؟! كانت الحسرة تأكل قلبى عليه ، وعلى كل الذين رُحّلوا على السفن ، وقد أيقنت أن من ماتوا فى الطريق إلى أنطاكـية اسـتراحـوا من عذاب جـديد كـان بانتظار أولئك الذين شاء اللّه أن يظلّوا على قـيد الحياة ، وسـرعـان ما تذكـرت ثاونا ، وما قالـه لى ذات يوم ، من أن الروم فى زمن سطوتهم وبطشهم بمصر من دهـور ، كـانوا يستـخدمون الأقبـاط وقوداً لحروبهم ، حـتى إنّـهم حاربوا مرّة ، فى بلد فـوق البحر الرومى وبـلاد الجريك يسمى سـويزرة ، وكانوا يأخذون الجـميع مـعهم ، بما فى ذلك النـساء القبـطيات الورعات لـرعاية الجرحى والتطبـيب والتمريض ، وكانـت واحدة من هؤلاء النسوة يعقـوبية طاهرة ، فراحت تُعلّم هؤلاء الناس ، فى سـويزرة هذه ، أصول النظافة ، والعلاج ، والديانة الحقّة حتى استشهدت وهى قديسة متفانية ، فصنعوا لها ضـريحاً ، ورسموا لهـا أيقونة ، وعملوا كنيسة على اسمهـا تسمى كنيسة فيرينا ؛ داخلنـى شعور جـارف بالألم والمرار ، وشملنى حزن نبيل ، بينما كنت أتذكـر كل ذلك ، وطارت عصافـير شـوقى إلى برّ مصـر ، فرعف راعف الحنين بدمى ، وتفـجّرت ينابـيع دمعى بلهـفة الرواح والعـودة إلى ترابى ، وسمائى ، ونيلى ، وشمسى ، ورحت أهمس لنفسى بما كانت قد

دفعت إليّ به الـروايحية إمـرأة الشهاب ، ذات يوم ، لأكـتبـه لواحدة من صويحبـاتها ، كانت علـى وشك الرحيل من بغـداد إلى غزنة ، مع رجل زوجوه لهـا من هذى البلدة ، فأرادت أن توشّى بعـضاً من أثوابها بجـميل العبـارات وأحسنها ، كـما جرت العـادة وابتدع فى ذلك الوقت ببـغداد ، فكتبت لهـا - ضمن مـا كتبت - على صـدر قميص خـزّ أكحل بالفـضة والذهب ، ما يذكّرها بأهلها ووطنهـا، وكان ذلك بخطّ كوفى نيسابورى ، شاع واستُحّب كثيراً لدى الناس

سقى الـله أرض العاشـقين بغيـثه ورد إلى الأوطـان كل غـــــريب
وأعطى ذوى الهيئـات فوق مُناهم ومـتع مـحـبوباً بقـرب حـبـيب

ثم إنّى بقيت فى البستان وقتاً مع اليشكرى ، فأخبرنى أنه هبط المدينة ، للبقاء فـيها بضعة أيام ، قـبل رحيله إلـى دمشق ، وقد طلبـها للعمل عند بعض ورّاقيـها ، كما وعـده الجوهرى الذى التقـاه فى بغداد ، وأنه راغب كذلك فى زيارة مساجـدها ، ومقامات الأنبياء فيـها ، لكنّه لن يتمكن من الرحيل إلا بعد أن يستعيـد قواه ، ويبرأ مما هو فيه ، لأنه سار طويلاً على قدميه ، بعد أن مرضت راحلته ولم تعـد تتحمل الركوب ، فعرضتُ عليه أن نبيت فى جانب من البستان الذى نحن فيه ، ثم نسعى لحلّ مشكلته فى المدينة عندما يحلّ الصباح ، إنشاء الله .

بقـينا ساهرين نتـحادث حـتى قـرب طلوع النهار ، وظلّ اليـشكرى يحكي لى عن أمور بغداد ، وما استجد بها من أحداث بعد رحيلى ، فقال إن الأحوال بهـا صارت على غير مـا يرام ، وإن أكثر الناس أصبـحوا فى ضيّق العـيش وصارت العامّـة كثيـرة التذمـر ، بعد أن فشـا أمر الشطار ، والعيارين ، والمكدية ، وغلب الفقر ، حتى أن أكثر الناس صارت لا تأكل

إلا السويق المصنوع من طحين الحنطة ، أو الشعير المحمّص المخلوط بالتمر مثلما يأكل الزنج والسودان ، وهذا لم يكن يحدث قبل ذلك، وأن الهريسة صارت هى الأكلة الفريدة التى لا تعرف غيرها كثير من البطون ، حتى إن بعض الظرفاء قال فيها :

إن الهريسة أهواها ... وبالهبطة قلبى جد مفتون

وإن ذكرت سواها هاج لى طرباً ... وإن أتى بعده لونان يكفينى

وقد تفشى الإملاق ، وبات الناس يرفعون الرقع إلى الخليفة وأولى الأمر ، حتى إن أحدهم كتب فى واحدة من هذه الرقع :

- إن مصائب الدهر وأعاجيب الأيام ومحن الزمان قصدتنى ، فأخذت منى ما كانت الدنيا أعطتنى ، فلم يسبق لى ضيعة إلا خربت ، ولا نهر إلا اندثر ، ولا منزل إلا تهدّم ، ولا مال إلا ذهب ، وقد أصبحت لا أملك سبداً ولا لبداً ، وعلىّ دين كثير ، ولى عيال ، وأطفال ، وصبية صغار ، وأنا شيخ كبير قد قعدت بى المطالب وكبرت عنى المكاسب وبى نظر إلى أمير المؤمنين وعطفه إذ صرت على حال من قال :

لى بيت كأنه بيت شعر ... لابن حجاج من قصيد سخيف

أين للعنكبوت بيت ضعيف ... مثله وهو مثل عقلى الضعيف

بقعة صدّ مطلع الشمس عنها ... فأنا مذ سكنتها فى الكسوف

وقال إن العيارين بلغ بهم الأمر إلى محاربة الشرطة والافتتان معها ، وصبّوا الماء على رجالها ، وطاردوهم فى الشوارع ، كما أنهم أولعوا بأذى الخدم السود ، وصاروا يقولون لهم كلما صادفوهم : يا عقيق . وهم ينظّمون أنفسهم إلى عشرات ، على كل عشرة منها عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ،

والرئيس وتحت إمرته عشرة أمـراء ، وهو الرئيس الأعلى للتنظيم العسكرى العـيّارى ، ومن رؤسـائهم من يقـال له نبتـوية ، وخـالويـه ، ودويل ، ودغال ، وأبو نملة ، وأبو عـصارة ، وديكويه ، والمخـرّمى ، وأن البعض يقول أن عددهم ببـغداد اليوم يزيد عن خمسين ألف عـيار ، حتى أنهم إذا تحركوا هلك بـعضهم من كثرة عـددهم وسرعتهم ، وأنهم لا جنـس معيناً لهم ، بل إن أكثرهم من غير العرب ، وبسبب سوء الأحوال فإن كثيراً من أهل الحرف ، والباعة المتجولين ، وصغـار التجّار ، الذين كسدت سوقهم وبارت بضـاعتهم ، باتـوا ينضمّون إلـيهم ، إضافـة إلى الأوباش ، وأهل السجون ، وأهل السوق .

لم نشعـر كم لبثنا نائمين ، إذ أفقنا قـرب الظهيرة على صـوت جلبة وصياح ، فلما تبـيّنا الأمر وتنبهنا ، وجدنا أن أصحاب البسـتان قد جاؤوا لشؤونهم فظنوا أننا لصان جـاءا لسرقة مالهم وغلّتهم ، فأفـهمناهم ما كان من أمرنا ، وأننا من الفـقراء إلى اللّه الذين لا غايـة لهم فى هذه الدنيا ، وأننا لسنا بسارقين فلما استقـروا على أمرنا ، وآمنوا بحكايتنا ، أكرمونا ، وأطعـمونا مـن خيـرات أرضهـم ، ثم إننا سألنـاهم عن بيطار يداوى دابة اليشكرى فوصفوا لنا واحداً يقع دكّانه بحارة اليهود .

سحبنا البهيمة بعد ذلك ، حتى وصلنا إلى حارة اليهود ، وهو طريق يصل ما بين شـارع داود وسور المدينة ، وليس ببعـيد عن بوابة صهـيون ، ولم أكن قد دخلت هذه المنطقة من قـبل ، وكانت منازل قليلة متناثرة فى المكان هنا وهناك ، وكانت بالحارة بضعة حوانيت مـعدودة ، وقد وقف أصحابها على أبوابها أو للعمل فيها ، وأكـثرهم على حال بيّن من الفقر والرثاث ، ثم إننا دلفنا إلى حارة أضيق ، ضمـن هذه الحارة ، تسمى حارة الريشـة ، وكانت هى المقصودة ، التى دلنا عليها أصحـاب البستان ، فسألنا عن البيطار نحمـان بن عويديا ، فدلونا على دكـانه ، فلما وصلناه استـقبلنا الرجل ،

وسألنا عن علّة البغل الذى لليشكرى ، فقال اليشكرى إنّه يعانى كثرة حركة الرأس ، وقلة الأكل ، وسيلان الأنف ، وإنه ظهر له بروزمستطيل خلف الأذن ، وهو لا يقوى على الحركة والنشاط ، وكنت خلال ذلك أنظر للبيطار وأتأمل أدواته ، فوجدت أنه ليس بالنظيف ، ولا لطيف الهيئة ، كما جرت العادة فى أطباء الناس ، لكنه بدا لى قوىّ الذراعين ، عبل البدن ، خفيف الحركة ، نصوحاً ، صدوقاً ، وكانت فى ركن من دكّانه الوسيع ثلاث مطارق كبرى ، قد تفوق السبعمائة درهماً وزنا وفق تقديرى ، وهو ما يستخدم فيما يبدو فى تقويم اعوجاج المسامير ، والتطابيق ، وسائر الآلات ، وكان هناك كذلك مطارق وسطى للدقوقات الأوائل وبعض التقويم ، وبها تعدل غالب الآلات ، ومطارق صغرى لأجل التبشيم ، وتقويم المباضع ، وأقل ما تكون فى تقديرى من حيث الوزن مائة درهم ، وكانت لديه تسعة مباضع ، بعضها دقيق لطيف ، وبعضها أملأ من ذلك ، وكانت لديه كذلك قرم ، وشنج ، ومكاوى ، وكلاّبات ، ومزاعط ، وأميال ، ومقراضين ، واحد صغير ، وآخر كبير ، وكانت لديه كذلك أمواس ، وإبر ، وسلوكات مختلفة ، فلما عاينت ذلك كله تعجّبت ، ولم أكن قد دخلت دكان بيطار من قبل .

ثم إن الرجل عاين البغل ،وهو يربت عليه ،ويرغّبه فى فتح البوز ليكشف على أسنانه وفكه ، ونظر أنفه ، ومواضع الشم ، وفتش فى جلده وبطنه ، ودق على ركبه دقاً لطيفاً ، وأشياء عديدة مما يستوجبه الكشف والمعاينة وتشخيص الداء ، ثم إنّه فكّر ومحّص قبل أن يخبرنا أن البغل مصاب بمرض يسمى الإهليلجية وعلاجه كسب البزر ، أو دقيق البزر قطونا بالصابون طلاء ، فإن انفجرت دمّله عولجت بالإزالة الجراحية ، ونصح اليشكرى أن يصبر على الدابة ، فلا ينهكها بكثرة المشى والمسير ، حتى تبرأ وتطيب .

مضى وقت بعد ذلك حتى ودّعنى اليشكرى ، وسافر قاصداً دمشق ، وكنت خلال ذلك قد عقدت عزمى على ألا يحول الحول إلا وأكون قد عدت إلى برّ مصر للبحث عن عزيز عينى ثاونا ، وإدراكه قبل فوات الأوان بأن يباعد بينى وبينه مفرق الأحبة والخلان .

كان مما عجّل فى رحيلى عن مدينة الأنبياء ، تدهور حالى ونفاد مالى حتى أنى جعت ذات ليلة فأكلت الطين ، وما صرت إلى ذلك حتى قلّبت قلبى أتذكر هل بها رجل أصيب عنده غداء أو عشاء ، فما قدرت عليه ، وكان علىّ جبّة وقميصان ، فنزعت القميص الأسفل فبعته بدريهمات ، وقصدت سوق المكارية بالمدينة فجاهدت حتى وجدت من يحملنى إلى الرملة بدريهماتى القليلة التى دفعتها له ، ومن الرملة بلغت مدينة تسمى عسقلان بها سوق ، وجامع جميل ، ورأيت بها طاقاً قديماً قيل إنه كان مسجداً ، وهو طاق من الحجر الكبير ، لو أرادوا هدمه للزمهم إنفاق مال كثير ، وخرجت من هناك فوجدت فى الطريق قرى كثيرة ، ومدناً يطول وصفها، ثم بلغنا مكاناً يسمى طينة ، وهو مرفأ عامر بالسفن ، ويُذهب منه إلى تنيس ، فذهبت إلى رجل سفاينى من الملاحين ، وقد توسّمت فيه الطيبة ، فسألته أن يحملنى معه إلى تنيس ، وقد علمت أنه متوجه إليها ، وذلك على أن أعمل فى الوقايد دون أن أدفع له ما يدفع لأمثاله مقابل الحمل ، لكنه لم يستعملنى فى الوقايد ، وبقيت على السطح فى حراسة فيل مجلوب من الهند هدية إلى أمير مصر من بعض التجار ، فظللت ، تصك الشمال وجهى ، وينشر الليل الصقيع على رأسى ، ولم يكن معى غير لحاف سمل ، ومضربة خلق ، وبعض ما لا بد لمثلى منه ، وبقيت على هذى الحال مدة حتى أنى حننت وترحمت على أكل الطين الذى لا أجده وأنا فى البحر ، وكانت هناك جماعة من الحجيج الأقباط هبطوا السفينة عائدين إلى تنّيس من حيث أتوا ، بعد زيارتهم بيت المقدس ، والمواضع التى لا بد من

زيارتها ، والتبرك فيها ، لكل من آمن بالمسيح ، فلما لاحظوا عكوفى وامتناعى عن الأكل، قدّموا لى زاداً مما لديهم من الجبن المطبوخ بالعسل واللحم ، وبعض الفاكهة الطازجة ، فشكرتهم على ذلك وآمنت بالله ورحمته ، ورحت أتلو : « وما من دابة على الأرض إلا على الله رزقها » صدق الله العظيم .

لاح لنا برّ تنّيس، بعد صعود الشمس عن الماء بقليل ، فما أن رأيت الأرض ، والشجر ، والنخيل ، وقباب المساجد ، وكؤوسات الكنائس والبيع ، البادية فى عليائها عن بعد ، حتى أخذتنى رجفة ، ارتعشت لها أطرافى ، وعصفت بأعطافى ، وكأنّ عينى لا تصدقان ما تريان ، وكأن نفسى تشكّ أن رحيلى كان ، وأن خروجى من بر مصر لم يكن ، فلم أتمالك نفسى ورحت أجهش ببكاء سمعه كل من كان حولى ، وجعل الفيل يستدير إلى ويخزرنى بعطف بدا لى معه وكأنه افتهم ما أنا عليه من انفلات الشعور وجيشان النفس ، فلما استقرّت السفينة استقرارها الأخير ، ونزلت منها، ووطأت قدمى تربة الأوطان ، سجدت مُقبلاً لما أخذ روحى وردّها ، ورحت أحفن التراب بيدىّ ونفسى تهتف : هذى هى الحقيقة ، ذاك هو اليقين .

ثم إنى صليت ركعتين لله شكراً وحمداً، وبقيت فى تنّيس ليلة ، بتّ فيها بواحد من مساجدها ، هو مسجد الخراسانى بالقرب من الساحل ، فلما انتهيت من صلاة العشاء ، وقلت لنفسى أن أستريح قليلا قبل شروعى فى صلاة التراويح ، وبينما أنا أنظر حولى وأتأمل المكان ، وجدت رجلاً جالساً مستقبلاً القبلة ، وبين يديه العصا التى يعتمد عليها ، والمصحف ، وعلى وسطه خرقه ، وشعره منشور على ظهره، وكان إلى جانبه شيخ يبكى ويستعطفه ، ويقول له أمّك تبكى حزناً وقهراً ، فردّ عليه الأول قائلاً ، ما أدخل لك منزلاً وأنت تعمل فى الصرف ، إنما أنتظر طلوع النهار ، ثم

أدخل النيل وأأتزر بالماء وألقي هذه الخـرقة ، ولم يسكت إلا بعد أن عـقد على أبيه ألا يعـمل فى الصرف أبداً ، فتعـجّبت لذلك ، وأدركت أن هذا الرجل من الزاهدين ، ثـم علمت بعـد ذلك من خادم المسـجـد ، أن هذا الزاهد ظل زمناً مقيـماً فى وكر بأسفل المنارة ، من غيـر أن يخالط أحداً ، إلا إذا أقيمت الصلاة خرج وصلى ، فـإذا سلم الإمام عاد إلى وكره ، فإن عارضه أحد بحديث كلّمه وهو قـائم ، بعد انصرافه من الصلاة ، وكانت حاله أبداً اتصالاً فى انفصال ، وقرباً فى ابتعاد ، وأنساً فى نفار .

ثم علمت أن هذا الزاهد قدم من مراكش مع أهله قبل حين ، فذهب حاجاً إلى مكة ، ثم عـاد إلى مصر ، واستقـر بتنيس ، وكان لا يحادث أحداً إلا لضرورة ، ثم أخذ فى ترميم هذا الجامع ، وكان خرباً مهجوراً ، ونظّفه بنفسـه حتى نقّى ما كان فيه من الوطواط بسـقوفه ، وساق الماء إلى صهاريجه ، وبلّط صحفه ، وسبك سطحه بالجبس ، وأقام فيه .

وكان يؤثر فى السـرّ الفقراء والأرامل ، ولا يسـأل أحداً شيـئاً ، ولا يقبل غالباً ، وكان يبذل جهـده فى كتم حاله ، وعرف عنه كثرة قراءته فى المصحف ، ومطالعة الكتب ، ولم يره أحد يخطّ بيده شيئاً ، ولم يعمل له سجـادة قطّ ، ولا أخذ على أحد عـهداً ، ولا لبس طاقيّـة ، ولا قال أنا شيخ ولا أنا فقير .

ثم إنّى نمت على أمل أن يحيـينى اللّه فى الصباح ، فـأتوكل عليه ، وأشد رحـالى إلى مصر العـتيـقة لأرى حال الآباء فى كنيـسة قصـــر الشمـع ، وأكتـحل بمرأى الأب يوساب وهو لا بدّ واقـف على مـصير عـــزيز عينى ثاونا ومكانه .

ركبتُ السفينة من تنّيس ، ودخلت فرع الروم ، وهـو من فروع النيل المطروقة بأسفل الأرض ، حتى وصلت بلداً تسـمّى الصالحية ، وهى مدينة كثيرة النعم والخيرات ، كان بمرفئها وقت وصولى سفن كثيرة تُصنع ، وهى من النوع الكبير المحـتمل ربما ما يزيد على مائة حمل حُـمار ، ومنها تنقل البضاعـة إلى مصر العتـيقة حتى أبواب دكـاكين البقالين . وفى الصـالحية التقيت رجلاً قبطياً ، كنت قـد تعرفت عليه عند ركوبى السفينة إلى تنّيس، فلما رحنا نتذكر بعـضنا البعض ، ونتداخل فى الكلام ، علمت أنه منحدر إلى الفسطاط للبحث عن ورّاق يعـمل له كتاباً وضعه بالقبطيـة عن طبقات الأطباء ، وهو راغب فى نقل الكتاب إلى القلم العربى ، بسبب تفشّيه أكثر بالبلاد فى هذه الأيام ، فلما علم أننى قبطى من الجدود ، والبشمورية هى لسانى الأول تعجب لذلك تعجّبـاً شديداً ، وكان يظن أننى عربى المولد ، والأصل بسبب جـريان لسانى بالعـروبة ، ثم إنه طلب منى أن أنقل كـتابه هـذا إلى العـربية ، وأن أخطّه له ، بعـدما عـرف أننى أجيـد نسخ الكتب أيضاً ، وراح يحكى لى عن جـانب منه ، فقال إنه يحوى كلامـاً عن كافة الأطباء ومنهم رجل حكيم ، اشتهر ، وذاع اسمه فى الزمن القديم ، ليس فى الطب فـقط ، ولكن فى الهندسـة ، وسـائر العلوم ، وإن هذا الرجل ورد مصر فى الـدهور المندثرة ، فذهب إلى أهل مدينة الشمس ، المـعروفة فى زماننا بعين شمس ، فـقبلوه على كره وامتحنوه زمـاناً فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصـيراً ، فما كان منهم إلا أن وجّهوا بفيـثاغورث - وهذا كان اسمه - إلى كهـنة منف ، كى يبالغوا فى امتحانه ، فـقبلوه على كراهة ، واستقصوا امتحانه ، فلم يجدوا عليه مـعيباً ، ولا أصابوا له عثرة ، فبعثوا به إلى أهل ديوسوس ليمتحنوه ، فلم يجـدوا عليه طريقاً ولا إلى إدحاضه سبـيلاً ، ففرضـوا عليه فرائض صـعبة كيـما يمتنع من قبـولها فيدحـضوه ويحرموه طلبتـه مخالفة لفرائض اليونانيين ، فقبـل ذلك وقـام به ، فاشتد إعجابهم به ، وفشا بمصر ورعه حـتى بلغ ذكره إلى أماسيس ملك مصر ،

فأعطاه سلطانا على ضحـايا الربّ ، وعلى سائر قرابينهم ، ولم يعط ذلك لغريب قط ، لكنى اعتذرت للرجل، فليس لدى وقت أصرفه فى مثل هذا الأمر ، إذ أن دخولى بر مـصر مرة أخرى أجج نار شوقـى إلى عزيز عينى ثاونا ، وصارت هواجسى تتزايد ، كلما تذكـرت كلام التاجر الفرّاس الذى التقـيته بالقدس ، عندمـا قال لى أنى ذاهب للبحث عن إنسـان عزيز على نفسى ، ولسوف أبذل جـهداً ووقتاً حتى أجده ، وهو جـدّ مريض ، وقد أدركه أو لا أدركه ، فـفارقنى وهو متـأسف على ذلك ، لأنه عزّ من تمكن من اللسان القبطى والـلسان العربى مجتـمعين ، فى ذلك الزمان ، وهناك الكثيرون قـد أدركوا العربية لساناً دون الكتـابة ، ومخطوطه ليس بالهين أو القليل ، لكنه من المخطوطات الخطيرة التى لا تحتمل الخطأ أو انعدام الخبرة والمهارة ، فـاعتذرت لـه مرة أخرى، وأشـرت عليـه أن يقصـد أهل البيع والكنائس ، لأنهم حـريصون على لغة دينهم حـرصهم على تعلم العـربية على أكمل وجـه حتى تُبقى الكنيسـة على شعبهـا ، فلما تركته ومـضيت ظللت أتأمل ذلك وقد لاحظت أن كـثيرين مما قابلتهم هنا فى الصـالحية أو تنيس باتوا يتكلمـون العربيـة وإن خالط كلامـهم كلمات قبـطية ، ثم إنى أديت فروضى وصلواتى ، وصلّيت صـلاة استخارة ، إذ كنت مـتردداً فى الذهاب إلى كنيسـة قصر الشمع ، رغم شوقى للآبـاء هناك ، وذلك خوفاً من غضبهم إذا ما وقفوا على حقيقة إسلامى ، لكنى كنت فى أمس الحاجة لمعـرفة أخـبار ثاونا ومكانه أيضـا، فلما نمـت فـى فيء نبقـة حنون بالظل ورطوبة الهواء ، جاءنى ثاونا ، على الهيئـة التى كنت قد رأيته عليها وقت هروبى من الأراضى الموحلة ، إذ كـان واقـفاً على علّـيّة وبيـده نقف وهو يقول لى : اتبعنى إلى بريّة هبيب .

فلمـا أفـقت من نومى ، ورحت أتذكّـر ذلك ، وقـد صـفا ذهنى وتوقّـد ، قلت لنفـسى ، والله إن خـاب رجائى فى الوقـوف على أمـره بكنيسة قصر الشمع ، لسوف أمشى إليه ساعياً فى برية هبيب .

ثم إن أهل الخير نصحونى أن أصل إلى بركة الحاج لأركب النيل منها إلى الفسطاط ، فكنت أسير على قدمى حيناً ، ويحملنى معه من يشفق على من الناس حيناً آخر ، حتى وصلت بركة الحاج ، وكانت عامرة بالماء وكذا الترعة المفضية إليها من البحر الأعظم ، وهناك كان السفاينيه ، والمراكبية مجتمعين ، فركبت مع نوتىّ صيّاد ، طلبت منه حملى لقاء عملى معه ، فوافق على أن أساعده فى طرح شباكه ولمها طوال مسيرنا ، كلما لزمته فى ذلك ، فلما وصلت الفسطاط ومنها إلى مصر عتيقة ، سارعت الخطى إلى كنيسة قصر الشمع ، حتى وصلت بابها ، وإذ أنا أهم بالدق والإستئذان بالدخول خرج شاب يافع من الباب وقد أدركت من ملابسه أنه شمّاس ، فاقتربت منه وسألته بكل أدب عن عزيزى ثاونا ، دون أن أطلعه على حقيقتى ، فردّ وهو يتفحصنى بارتياب قائلا :

- ثاونا ؟ لا يوجد أى من أعضاء الهيئة الأكليروسية هنا بهذا الاسم .

ثم إنه صمت قليلا ، والفضول يرسم نظراته ، بينما أخذ يزننى ويخمن بشأنى ، قبل أن يضيف :

- ربما قصدت الراهب ثاونا المسكين ، إنه الآن فى برية هبيب بدير الأنبا مقار . لا أظنك تقصد هذا .

طار قلبى من الفرح ، فودّعته على عجل ، وأنا أشكره كثيراً ، بينما هو واقف يشّعنى بنظرات كلّها دهشة واستغراب .

كنت أسير حيناً ، وأستريح حيناً ، وأنام حيناً آخر ، وأنا أمرّ ببلدات وقرى وأستفىء بأشجار ونخيل ، وأتلحف بسحابات السماء ، حتى بلغت مشارف بريّة هبيب ، ولم يَعُد على بَدنى غير مئزر وقميص ، ولا ملكت يدى غير نقف أتعكز عليه ، وكنت كلما طالعت صورتى وهيأتى فى جدول أو نبع ، أدرك كم بدّلنى الزمان ، فها هو المشيب يلوح بمفرقى ،

وها هى التجـاعيد تتكرّس بوجهى ، وهكـذا أيقنت أننى تعدّلت من طور إلى طور ، ودخلت من ديوان إلى ديوان ، وأدركتنى الرجـولة والكهولة ، وفارقنى الشباب والفتوة .

كانت شـمس لاهبة لا تعرف الرحـمة ، وكأنـها طاقـات من سعـير فتحت فى السـماء ، تصحبنى طول الطـريق ، وبقـيـت سائـراً أستـدل من الرعـاة على موضع الدير ، وكانوا يعينونى على ما أنا فيـه بشربة ماء أو جرعـة حليب وبعض تمـر ، حـتى بلغت أول الطريق الموصلة إلى ذلك الدير ، ثم أننى جلست لأستـريح قليلا وتيممت مـتهيئـاً لصلاة المغرب ، فمـسحت يدى بالرمـال الطاهرة وكأننى أغسلهـا ، ثم مسـحت وجهى ، وساعدىّ ، وقدمىّ ، وفعلت فعل الوضوء بغير ماء ، حتى أتطهّر وأستعدّ للصلاة ، وكـانت الشمس تستأذن للـرحيل ، فلما انتهـيت من صلاتى ، جلست أتأمل صمت الصـحراء العمـيم ، والشمس تغيب شيـئاً فشيـئاً ، وتتوارى خلف تلال الرمال البديعـة ، فبـدا المشهد فى عينى جليلاً آسراً ، وفكّرت كم أن الإنسـان ضـعيف ، وضـيع ، ظالم وغـشـوم ، مـفتـون بجبـروته وقوته وهـو لا يسـاوى ذرة رمل من هذى الرمال ، أمـام قـوة الله وعظمته .

ثم إنى قمت وسرت - كمـا وصف لى الرعاة - فى واد عريض ممتد من الرمال ، وكان ما تبقّى من شمس الأصيل قد أتاح لى لمحة خاطفة إلى الدير ، على البعـد ، فرقص قلبى فرحـاً ، وقد أدركت أننى على وشك بلوغ غايتى ، لكن سرعان ما استحكم الظلام ، وسلسل المكان بديجوره ، دون أن تطلّ نجمة واحدة من السماء ، أو يتعطّف القمر فيستبين ، فانقبض قلبى ، وداخلنى إحساس بالضياع ، وأكلتـنى الوحشة ، لكّننى بقيت سائراً ، متـوكلاً على الله ، أصطدم حيناً بالصـبارات الموحشـة النابتة هنا وهناك ، وأتعثّر حيناً فى الرمال الناعمة التى يصعب الخطو فوقها ، وأنا أدعو الله أن

يخرجنى مما أنا فيه ، وأصل غـايتى ، لأتمكن من إدارك عزيز عينى ثاونا ، قبل أن أهلك فى هذا المكان .

لا أدرى كم من الوقت لبثت على هذى الحال ، إذ لاح لى بعد حين ضوء استمـر منيراً فى ثبات، فتهيـأ لى أنه نجم بعيـد ، لكّنى أدركت كلما شددت الخطى باتجاهه ، أنّه كشاف يُشعَل فوق حوائط الدير ليهدى العابرين أو الضالين فى هذه الصحراء المترامية الموحشة .

وصلت فى النهايـة إلى بوابـة الديـر ، التى لم أكن لأدركها أبداً لولا هذا الضوء الهادى ، ومـا أن صرت قبالتـها حتى رحت أدقها دقـاً عجولاً متلهفاً، فجاءنى صوت من ورائها يستفسر عمن أكون ، فقلت له :

- إنى قريب للراهب ثاونا ، وجـئته لأمر من الأمـور الجليلة . فلما فتح لى الباب بعد حين ، اقتادنى خلال ممر ضيق داخل الديـر ، وكان الرجل القائد راهباً يحمل شمعداناً بشمعة واحدة ، أتاح لى ضوؤها أن أدور بعينى فى المكان وأدرك أنه أشبه بحصن من الحصون .

أُدخلت إلى مضيفة واسعة ، فُـرشت بَوبر الجمال ، ولها شبابيك من الخشب القباطى المُصلّب الفتحات ، والمعـمول على هيئة مشربيات ، وكان الطلوع إليـها بسلّم خشـبى ، يُوضع ويرفع ، وكانت تحـيط هذه المضيـفة بعض القلالى المظلمة . قدّم لى الراهب ماءً وتمراً ، وقال لى :

- نم الآن ، والصباح رباح .

لا أدرى كيف نمت ، إذ كانت الآلام تهيمن علـى جسدى كلّه ، فلم أفق إلا عند الفجر على صوت جرس الكنيـسة ، فنهضت مسرعـاً دون أن أدرى ، وقد ظننت لوهـلات أننـى ما زلـت قيّماً بكنيسة قـصر الشمع فى مصر العتيقة ، وإننى قد تأخرت عن الانصراف إلى أعمالى بها .

توجـهت إلى المشربيـة ، ورحت أنظر من خـلالها ، فـبـدا لى الدير تحتى ، والصحراء تلفّه من كل ناحية ، وكأنه زرع زرعاً فيها ، وقد أيقنت أنه حصن فى الحقيـقة بحوائطه الصماء وقد برزت مـرتفعة وسط الرمال ، ومدخله ، وقد جاء على شكل معين رباعى الأضلاع ، وحنياته المرتفعة ، وبابه الضخم المصـفّح بالحديد، وقد تكومت بالقـرب منه أعداد كبـيرة من الأحجار ، يبدو أنها تستـخدم لدرء الخطر فـى حالة العدوان عليه ، وكان للبـاب من الأمـام حجران مـثل أحجار الرحى ، قُـدّا من صخـر الصوان العنيد ، يمكن دحرجتهما ، وهناك بكرة تليـه ، يمكن الصعود بها إلى قمّة الحائط ، وكان هناك برج الدير الضخم ، وكنت أعلم أن مثله إنما يستخدم لحـفظ الكتب والقراطيس الإيمـانية المقـدسة ، وخـزن الملابس ، والأوانى الثـمينة، وتشـوين الطعوم كـالقـمح ، والزيت ، والزيتون ، والتـمـر ، بالإضافة إلى مواضع لاختفـاء الرهبان وقت الخطر . وكان للدير فناء كبير واسع ، وآخـر صغـير ، وقـلالى الرهبان تقع حـول هذه الأفنية ، وكـذا موضع الطاحون والفرن .

وقفت متـأملاً كل هذى الاستدارات ، وتذكّرت كم هى قريبـة الشبه بعـمارات بغداد ، والـقدس الإسلامـيّة ، والمسـيحـيّة، فكّرت فى سـبب تكريس الاسـتدارة فـى كل فن متـجـسّد تـراه العين ، قـلت إنها الراحـة والطمـأنينة التى يفـجّـرها الخط المنحنى المسـتدير ، وكان كـروان قد عـبر متـرنماً ، ولكلك بصوته الربّانـى الساحر ، فـانشرح صـدرى ، ووجدتنى أقول لنفـسى ، وأنا أشنّف آذانى بصوته العـذب ، أليست تلك العـمارات المستديرة محاولة متواضعة لمحـاكاة ما خلقه الله ؟! إن الشمس مستديرة ، والقمر مستدير ، وأوراق الشجر والنـبات مستديرة أو هى نحو الاستدارة ، إن الاستـدارة هى حالة من السرمـدية الدالة على أن اللّه هو الأول ، وهو الآخر ، وهو المبتدأ وهو المنتهى ، والتدوير فى كل فن إنما هو فطرة إيمانية،

فطر اللّه الناس عليها دون أن يشعروا ، وقد رأت عيونهم ، وأدركت حواسهم تجليات خلقه فى كل ما هو منحن مستدير أو نحو المستدير، حتى فى الخلقة البشرية ، والخلقة الحيوانية ، وقطرات المياه .

ثم خرجت جماعة من الرهبان من قلاليها ، وتحركت إلى موضع بالفناء ، ودخلته ، وسرعان ما جاءنى الراهب الذى استقبلنى فى المساء الفائت ليوقظنى ، فلما وجد أننى أفقت ، ألقى علىّ تحية الصباح ، ودعانى لتناول وجبة فطور ، فتبعته إلى حيث الموضع الذى دخله الرهبان ، وهو المطعمة ، وكانت غرفة طويلة ضيّقة ، لها سقف مُقبّب ، به دكّة حجرية منخفضة أو ما يشبه الغور الضحل بوسطها ، وكان الرهبان جالسين على أطراف ذلك ، فلما دخلت عليهم ، وحييتهم وجلست ، بُدئ الطعام ، وكان أرغفة من خبز الطحين الخشن وزيتوناً ، وزيتاً ، ثمإأن أحد الرهبان أخذ فى تلاوة ما تيسّر من الكتاب المقّدس ، فأطرقت تأدباً ، وأنا آكل مثلهم حتى انتهى .

خرجت بعد ذلك بصحبة الراهب المضيف لنتمشى قليلا ونتحادث ، وبينما نحن نسير أخبرنى أنّه أُذنَ لى بالدخول على ثاونا ، بعد أن أعلموه باسمى وأيقنوا معرفته لى ، ورغَبته فى ملاقاتى ، لكنّه ليس على ما يرام من الصحة ، وإنه تسلسل فى المرض منذ زمن بسبب دخوله الشيخوخة واعتلال قلبه ، لذا يُفضّل أن أوجز مقالتى معه ، ولا أتزيّد فى الكلام ، كما نصحنى بألا أرتاع أو أضطرب ، إن هو لم يجاوبنى بالحديث ، أو تخالط كلامه معى ، فلما سمعت ذلك أوشكت على البكاء ، وطمأنت الرجل بأننى سأكون عند حسن ظنه ، ولسوف أمتثل لنصحه هذا .

أدخلونى قّلاية بالحصن ، ضمن مجموعة من القّلايات ، قيل لى أن قوماً من المريس - أى أهل قبلى - يقيمون فيها منذ زمن ، فلما ولجت من

بابها ، وجدت شيـخاً راقداً على سرير من خشب الجمّـيز ، ليس تحته إلا فرش من وبر ، فما أن تبينته على ضـوء الصباح الساقط من كوّة القلاية ، حتى رحت أرتعش ، وسرعان ما خطوت نحوه ، وسجوت إلى جانبه وأنا أهمس بصوت مضطرب ملهوف: ثاونا !! عزيزى ثاونا ! ولم أتمالك نفسى فـانخرطت فى بكاء شـديد ، بين ذهول الرهبـان ، ودهشتـهم مما يرونه ، وبقيت حـيناً أهمس باسمه ، وأناديه ، دون أن يردّ ، فاقـتربت من أذنه ، ورحت أقول له بصوت راجٍ :

- ثاونا، إننى بـدير !! ألم تقل لى اتبـعنى إلى بـرية هبـيب ؟ لقـد تبعـتك يا عزيزى ، وها أنا الآن أقف بين يديـك ، ثم إنى أخذت أنتحب بمـرارة ، وقد عزّ علىّ أن أرى ثاونا وهو عـلى هذى الحال من عدم التـيقّن وغياب العـقل ، وهو الرجل الحكيم ، النجيب ، الفطن ، الذى عرفـته فى زمن من أعز أزمنتى على نفـسى ، فلما تزايد نحيبى وجدته يحرّك رأسه ناحيتى بصعوبة بالغة ، ويقول :

- أخى العـزيز بدير. . أنت هنا حىّ ترزق ؟! أحقـاً ذلك ؟ أم إننى أهرف وأهذى ؟!

مددت يدى ووضعتهـا على وجهه ليتيقن من حقيـقتى ، وسرعان ما انهمرت دموعه هى الأخرى ، وأضاف بوهن :

حمدا للربّ أنّه قـدّر لى لقياك مرّة أخرى ! هذه معجـزة ربانية وبركة من بركات الشهيد أبو مقار !

رفع يديه بصـعوبة وأخـذ يصلّب ، ثم راح يسألنى عن نفـسى وعن أحوالى ، وما جرى لى بعد أن فقدنى فى برية هبيب ، فرحت أقصّ عليه ما كان من أمرى ، وكان الرهبان قد تركونا وانصرفوا ، بعد أن نبّهوا علينا ألا يكثر الكلام حرصاً على فؤاده ، وحتى لا تأتيه نوبة من نوبات علّته التى

تفاجئه بين الحين والحين ، ثم إنه راح ينظرنى ملياً ، ويتأمل حالى ، وشعرت أنه تعجّب من لبسى لذلك المئزر البالى والقميص ، وما عليه هيأتى من تشوش ، وعدم هندام ، ثم إنه تأمّل عنقى طويلاً ، وقال فجأة :

- أين صليبك يا بدير ، لماذا لا أرى صليبك على صدرك ؟!

قلت بسرعة وبصوت هادئ واثق :

- ولهذا جئتك يا أخى العزيز أيضاً ، إذ أردت أن أدعوك إلى دينى ، فأنت من أحب الناس إلى قلبى ، والإسلام هو دين رحمة ، ونور ، ومحبة وبرّ ، والناس فيه سواسية كأسنان المشط ، ووالله ما وجدت فيه إلا كلّ عظيم ، ونبيل ، وخيّر ، وكل هذه المحاسن فيك يا عزيزى ثاونا ، ووالله إنك لأقرب الناس إلى مهجتى وفؤادى ، فليتك تأتى إلى ما أنا فيه ، وتؤمن بما آمنت به .

رغم تعبه ومرضه ، ظلّ ثاونا يستمع إلى بآذان منتبهة صاغية ، وبدا لى وكأنه يفكر فى كل كلمة أقولها ، ولم يقاطعنى مرة واحدة ، ولم يبدِ شيئاً من الغضب والانفعال ، وعندما انتهيت ، صمت وقتاً قبل أن يقول :

- نحن لا نختار يا بدير ، لكن الربّ هو الذى يختار لنا ، ونحن عبيد مشيئته ، إنّى فرح بك ، لأنك تسعى لدفع الناس إلى ما تراه صحيحاً ، خيراً ، لكّنى حزين لأنك تركت دين أهلك وآبائك ، وخرجت من جنّة الكنيسة ، ودرب المسيح .

كانت عيناه قد بدأتا بالدمع ، وبان لى جدّ بائس وحزين ، فرحت أمسك بيده وقد أخذت فى الارتعاش ، ورحت أربت عليها بينما كان يواصل كلماته بصعوبة :

- إنى حزين ومغموم يا بدير ، لكن لك ما تراه ، طالما أنك وجدت فى دينك الجديد ما يضعك على طريق الحق والعدل ، أما أنا يا عزيزى ، فلا أظن أنى تارك دينى ، ولا أظن أننى مستطيع اعتناق دين سواه ، فلقد عشت عمرى كلّه، تأخذنى الهواجس والأفكار ، وتتنازعنى الفلسفات حتى صرت مسيحياً تاوضوسياً ، ولسوف أموت وأنا على ما أنا عليه ، وليرحمنا الرب جميعاً يا ولدى الطيب ، ويغفر لى ولك ، وقد قدر هو وشاء .

تأثرت غاية التأثر لكلامه ، وزال همّ قد كتمته فى نفسى طوال طريقى إليه ، إذ كنت أخشى هذه اللحظات ، لحظات مواجهتى له بدينى الجديد ، وقد كنت أدرك صعوبة استجابته لمطلبى كذلك ، فثاونا ليس بالرجل الهين الذى يسهل التأثير عليه ، وهو لا يعتنق عقيدة ، إلا بعد أن يتفحصها ويمحصها ويقلب فيها بعقله على كل وجه من وجوهها، وهو لا يشك إلا ليوقن ، ولم يكن ممن يأخذون الأمور على علاتها أبداً .

لم أكن أريد أن أكثر عليه بمزيد من الكلام ، لكنى شعرت أنه راغب فى الحديث إلىّ ، والبوح بما يداخله عندما قال :

- أو تعلم يا بدير ؟! بعد أن عشت كل هذه الحياة ، وبلغت ما أنا عليه من العمر ، لم أعد أهتزّ كثيراً لما يحدث حولى من أمور ، وبت لا أفكر فى الطرائق ، قدر تفكيرى فى الغايات ، لقد أدركت منذ هروبى من الأراضى الموحلة ، أن لا فائدة فى الدنيا ، طالما غاب العدل بين الناس ، وطالما بقيت الرحمة لا تشمل الضعيف من القوى ، وكنت أتساءل ، بعد كل تلك الحرب الغشومة التى رأيتها ببؤبؤ العين ، أليس كل هؤلاء الناس من ضحاياها ، سواء أكانوا مسيحيين أو مسلمين مستحقين لدخول الجنة ، ألا تظن يا

بدير أن عدالة السماء سوف تشملهم جميعاً ، وهم الذين لم يجدوا عدلاً أبداً فى هذه الدنيا ، وقد جاعوا وتعّروا ، وباعوا عيالهم وأهلهم ؟! ألا تظن يا بدير أن الله سوف يشملهم بعطفه ولطفه بصرف النظر عن كونهم مسلمين أم أقباطا ؟ .

ثم إليك ما انتهينا إليه أنت وأنا :

- لقد تركت أنا الدنيا وفارقتها لأكون هنا متفرغاً لخدمة المسيح بعيداً عن الناس ، وها أنت تعود إلىّ بعد إسلامك ، وليس عليك إلا قميص ومئزر ، ونقف تستند إليه ، قل لى بالله عليك ماالفرق بيننا ؟! أليس عزوفك هو عزوفى ؟ ورفضك البقاء على ما هى عليه أحوال البلاد والعباد هو ما دفعك وما دفعنى أيضا لأن نهجر كل هذا ونبتعد عنه ، وقد شعرنا أنه لا فائدة يا عزيزى فى هذا العالم ، وأنه لم يتبق لنا إلا محبة الله ؟!

ثم إنه أخذ يردد بصوت خاشع عميق، وقد صحا ذهنه ، وقويت عزيمته بعضاً من آيات دستور الإيمان ويقول :

- نور من نور إله حق ، من إله حق ، مولود غير مخلوق ، خالق السماوات والأرض ، ما يُرى وما لا يُرى ، اللّه ضابط الكل ، الذى به كان كل شىء .

ثم راح يردد طويلاً :

- وننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتى .

أقمت فى الدير أياماً ملازماً لثاونا ، قائماً على خدمته ، وقد عزّ على أن أغادر الدير وهو على هذى الحال من الضعف ، وشدة المرض ، وكان ثاونا قد أطلع الرهبان على حقيقة أمرى وإسلامى ، فعاملونى جميعاً

أطيب معـاملة ، وأتوا لى خصيصـاً بزربية طاهرة من وبر الجـمل ، حتى تكون لصـلاتى ، وكـان جُـلهم من القـانتين المؤمنـين بالسـيـد المسيح ، والمخلصين فى إيمانهم ، المنصـرفين إلى عالم الزهد ، بالصـوم والصلاة ، وكثرة القراءات والتلاوات الإيمانية ، كمـا شهدت ، ثم إن بعضهم أخبرنى لما سألت ، بأن ثاونا اسـتطاع الهرب وقت فـتنة البشمـور ، وحرص على الاخـتبـاء فى موضع من المواضـع حتى هدأت الأمـور ، وبعد ذلك كـره العودة إلى بيعة قصر الشـمع ، وآثر حياة العزلة والزهد ، فارتحل إلى هذا الدير الذى رُسِّم فيه راهباً ، فبـقى فيه سنوات طويلة ، ولم يخرج منه إلى الـريف أو الإسكنـدرية أو مـصر ، وكـان كثـير المكوث عند المغـارة التى بالدير ، والتى فيها آثار الآباء الـبطاركة ، وهم مرقس الإنجيلى الأول الذى رأسه عنـد أولاد فهد بمدينة الإسـكندرية وجسده فـى البندقية ، وانـيانوس المدفون فى بيعة جرجس عند مسلّة فرعون بالإسكندرية ، وأنه ما خرج إلا إلى القلالى القـريبة والتى فى البهلس أى الوادى، فكان يـخّر على الآثار المقدسة فى كل صلوة ، ويوقد عليهم قنديلاً فى كل يوم وليلة، وكان يطيل الوقوف فى رمارم الرهبان أى موضع وقـوفهم ، ويبقى على هذه الحال من التنسك زمناً .

وكان من أعجب ما شاهدت بذلك الدير منشوبينة ، أى سكن تعرف بضورتاوس لا يقـدر واحد من الرهبان بها أن يـقـول الليلويا إلا من حفظ المزاميـر كلها ظـاهراً ، من غيـر كتاب ، وكـان هذا السبب فـى أن يعرف الرهبان المزامـير ظاهـراً ، وقد رأيت كـذلك المغطس الذى تظهر فـيه الآية العجيبة فى ليلة كل سنة ، وهو أن ينظّف من الرمل الذى يجتمع فيه وبعد ذلك يمتلئ ماءً ولا يعـرف من أين أتى . وكان فيما تقـدّم كل من به خطيّة ويغطس فيه يظهر على جسـده لبس مـثـل لبس السمك ، وأيضاً لو اجتمع

فيه كل الخلق لا يلتصق جسم الواحد بالآخر وحواليه قلالى الرهبان وليس فيها شجر ونخيل ، ولا ينبت فيه زرع .

وكان فى يوم من الأيام أن أُخبر الرهبان بأن النيل لم يزد زيادة كافية ، وذلك بعد الخامس والعشرين من أبيب ، فعمل الرهبان ، وكما جرت العادة ، لقان ماء وصلّوا عليها كما يُعمل فى عيد بولس ، وعيد بطرس على أن يحمل إلى البحر ، ويسكب فيه فيزيد ماؤه ، وكان ذلك من الرسم المعمول به منذ القديم وحتى الآن .

ثم إن المرض زاد على ثاونا وفُقد الأمل فى برئه ، بعد أن خاب معه كل علاج ، وكان شيوخ الرهبان قَد جرّبوا معه العديد من العقارات ، والأعشاب ، والأشربة بعد أن ظلوا يختبرون حركة قلبه ، ومعرفة نَفَس القلب ، الذى منه تنتشر الأوعية فى جميع الجسم ، بالضغط عليها ووضع أصابعهم على رأسه ، وفخذه ، وأعلى يديه، وعلى شراسيفه ، وذراعيه ، وفخذيه ، لأن القلب تجرى أوعيته فى جميع هذه الأعضاء ، وهو مركز أوعية الجسم ، وكانوا يختبرون نَفَسه الحامض ، الذى يسرى بجسده ، حتى يعرفون مدى فساد دمه، خصوصاً عندما كان يشرب الماء ، لأن الوعاء المسمّى باللغة القديمة (آخذ) إذا سُدّ بالبطن ذهب الماء إلى القلب والعيون ، وكانوا يختبرون مدى صُمّ أعضائه ، وإذا ما طرأ السكون عليها ، فهو عارض عن اختلاط القلب بالأعضاء وتكدره ، وأشياء أخرى عديدة من الوسائل والعلوم القديمة المعمول بها دوماً فى الديارات ، والتى يتناقلها الرهبان جيلاً عن جيل ، وذلك دون انقطاع القراءات الجليلة ، والتعاويذ السحرية القديمة ، ومراقبة أوعية الآذان الأربعة ، التى يسرى نَفَس الحياة فى اثنين منها بالأذن اليمنى ، ونَفَس الم[illegible] [illegible] آ[illegible]رين باليسرى .

وظلّوا على هذى الحال زمناً ، وأنا أبيت عند قدميه ، ساهراً عليه ، ورغم سوء حالته فقد كان يطلب منى دوماً أن أحدثه عن ترحالى ، وما صادفته من حادثات ومحن ، فبقيت أقصّ عليه كل ما جرى لى ، وكيف حاولت أن أعمل ذات يوم على إبراء الأب تومـا فأشرت عليهم بعلاج حروقه بتلك التعويذة القديمة التى سمعت ثاونا يتلوها يوماً ، وقت اندلاع النار بسبب ريح الحسومات فى بعض أعشاش أصحاب المعادى عند النيل ، وقد ذهبنا لإنقاذ المحروقين من الناس بالأشربة ، والأدوية ، وهذى التعويذة القديمة ، وكان ثاونا يطلب منى أن أكشف له عما أنا فيه من إيمان وزهد بعد دخولى فى دين الإسلام ، وفى إحدى المرات سألنى – رغم تزايد المرض عليه وقد بدا أنّ أمرى يحيّره ، فقال وهو يتنفس بصعوبة :

– قل لى يا بدير، هل ازددت يقينا بالله بعد دخولك الإسلام ؟ وهل شعرت أنك تطهّرت من كل خطيئة ، وداخلت روحك منتهى السكينة، ولزمك الاطمئنان؟

لا أدرى ، ما الذى كان يتوجّب علىّ الردّ به على سؤاله هذا ، فقد تحيرّت ، وكنت أريد التعبير صدقاً بأقوى الكلمات عمّا بداخلى. فكّرت ثم قلت :

– الحق أقول لك يا ثاونا. كنت فى كل يوم مرّ علىّ قبل إسلامى ، أصبح فيه مهموماً ، متبلبل الفكر والخاطر ، تعذّبنى روحى بذكريات فتوتى ، وشبابى الأول . كانت صورة آمونة لا تغيب عن مخيّلتى أبداً ، وعندما تمثل بعينى ، أضيع بين عذابى بحبها ، وحزنى لموتها ، وكنت أتعذّب أكثر كلما تذكرت سويلا وما كان من أمرى معها ، فأكره نفسى ، وضعفى ، ونزقى ، وغياب روحى عن كبح شهوات الجسد . كنت قد اعترفت قبل إسلامى فى الكنيسة مراراً ، لكن الاعتراف لم يباعد بينى وبين الألم ، ولم

ينسني شعوري بالإثم والخطيئة ، ولكنى عندما سلكت سلوك العارفين ، وحزمت أمرى أن أسلك مع السالكين ، ووصلت إلى «لا هو إلا هو»، ونسيت «كان» وثبتّ فى «يكون» ، غابت عذاباتى، وبعدت مسافاتى فكلّ شيء هالك إلا وجه الله الكريم ، وها أنا قد أتانى النور الكاشف فسكنت نفسى ، وزال عنى همّى وبؤسى .

ظل ثاونا يستمع إلى كلّ ما أقول ، وأظن أنه جاهد طويلاً ، قبل أن يقول لى آخر ما قاله لى فى هذى الدنيا :

– عندما تودّعنى وتخرج من هنا ، لا تنس أن تقول كل ذلك للناس ، فإنما هم فى حاجة إلى مثله ، حتى تطمئن نفوسهم وتهدأ أرواحهم ، والزمان يغشى ذاكرتهم دوماً ، ويعمل عمله فيهم مباعداً فيما بينهم وبين فطرة الرب الإيمانية ، قل لهم ذلك حتى ولو ضربوك أو آذوك ، واصبر عليهم حتى يمسهم شيء من صدق إيمانك ويقينك .

مرت أيام قليلة على ذلك ، ثم أخذ عزيزى يدخل البرزخ الموصل بين الحياة والموت ، فغاب عن وعيه تماماً ، وصعب علينا أن نسقيه حتى شربة الماء ، ثم شاء اللّه أن تصعد روحه ذات يوم ، عند أفول الشمس وغروبها عن الكون ، وكنت ساعتها قد تركته قليلاً لأتوضأ وأتهيّأ للصلاة ، وإذ بناقوس الدير يدقّ دقّات حزينة متقطّعة ، فخرج الرهبان جميعاً من القلايات ليواتونه ، ويودّعونه الوداع الأخير بالنظر ، والصلاة على روحه الطاهرة .

ظلّ جسد ثاونا فى موضعه طوال الليل محاطاً بالشموع ، وقد وضع تحت راسه رغيف خبز ، وحفنة ملح ، وفقاً لعادتنا منذ أقدم الدهور ، ومكث الرهبان حوله يقدّسون ، ويقرأون القراءات الإيمانية الجليلة ، وكنت خلال ذلك أقف بعيداً ، أتمتم بما تيسّر من ذكر العزيز الحكيم ، وأترحّم

على روحه داعياً له بالرحمة والنور، متمنّياً على الله أن يحشره فى زمرة الأبرار الصالحين .

ثم إنّى بقيت فى الدير أياماً بعد وداع ثاونا إلى مثواه الأخير، وكان الرهبان قد أشاروا علىّ بالبقاء وقتاً حتى يجهزونى - قدر استطاعتهم - بما يلزم المرتحل فى الصحراء ، فوفّروا لى برذوناً لأركبه ، وكنت قد استأذنتهم أن آخذ شيئاً مما لثاونا على سبيل التذكرة ، فسمحوا لى أن أحفظ معى إنجيلا قديما كان له، خُطّ على رقّ ، طالما كان عزيز عينى يقرأ لى من آياته ويبصّرنى بمعناها الجليل .

فلما خرجت من الدير وأصبحت وحيداً فى بريّة هبيب ، وربما كان ذلك فى يوم من أيام ربيع الثانى ، غذّيت سيرى ، حتى أشرفت على بعض مواطن العمران ، فدخلت قرية من القرى ، ما أن أبصرنى بعض من صبيانها كانوا يلهون فى طرقاتها ، حتى توّقفوا عمّا هم فيه، ويبدو أن صورتى المشعّثة ، وهيأتى المتربة ، ورثاث حالى ، قد راعهم وأثار دواخلهم ، فراحوا يلتفّون حولى ، متضاحكين ، ساخرين ، ثم أخذوا يرموننى بحصيات وأحجار ، فحثثت الدابة على الإسراع لأبتعد عنهم ، وأنا أدعو الله أن يرحمهم ، ويغفر لهم ، ورحت أنشد وقد أُخذت بوجد ، وأصابنى شوق ، وتزلزلت أعطافى ، وترعشت أطرافى :

حسبى اللّه توكلت عليه	مَنْ نواصى الخلق طراً بيديه
ليس للهارب فى مهربه	أبداً من راحة إلا إليه
ربَّ رامٍ لى بأحجار الأذى	لم أجد بداً من العطف عليه

تمت بحمد الله " البشمورى" ، رواية روايات:

أسد رستم القزوينى

الفريد بتلر داود الأنطاكى

الإمام أبو حامد الغزالى نيكيتا إيليسيف

الراهب صموئيل السريانى الأنبا ايسذورس

القس يوحنا حنين علاء الدولة السمنانى

آدم ميتز فخر الدين الرازى

ابن العبرى يعقوب ليستر

السيد طه السيذ أبو سديره صالح أحمد العلى

الشهرستانى ابن سلمة النحوى

القلقشندى الحسن بن أحمد بن على الكاتب

عبد الرحمن عبد الله شيخ فريز صموئيل

سعاد ماهر محمد عبد الغنى الأشقر

الطبرى محمد عبدالهادى أبو ريدة

التيفاشى رشيد الدين الهمذانى

الأب يوسف قوشاوجى عادل محى الدين الألوسى

زيجريد هونكه الجاحظ

محمد الكشناوى العلانى يوسف الشربينى

فاضل أحمد الطائى

الحسن بن زولاق

أحمد كمال

المقريزى

ياقوت الحموى

الدميرى

المقريزى

إبراهيم مدكور

السهروردى

و.ج.دى بورج

نبيل محمد عبد العزيز

على السيد على

ابن النديم

ابو صالح الأرمنى

جمال الغيطانى

وآخرون .

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٢٨٧ / ٢٠٠٠

04

البشمورى 2

السمة اللافتة الأولى لكتابة سلوى بكر أنها تعرف كيف تحيل الحدث و اللحظة و المشهد الثقافى إلى شئ أشبه بالإيقاع الموسيقى ، فتذيب مادته وتنسجه فى خيوطه الدقيقة ، لكنها تدرك بفطنة إبداعية عالية أن هذا النسيج لن يتم ما لم تتعاكس و تشتبك تياراته فى إحتواء شفيق تارة ، و صراع مرير مرة أخرى ، بما يكفل تقديم منظور متماسك للعالم و المجتمع و الإنسان .

إنها تجمع بين تحرر الروح و محافظة اللغة ، بين تقدمية الموقف الاجتماعى ، ورصانة التعبير اللغوى ، لتقيم انسجاما بين نسق الحياة و الخطاب الإبداعى المشاكل لها .

د. صلاح فضل

جريدة الحياة اللندنية

تصميم الغلاف / يوسف شاكر

